من نجوم الإسلام

(١٨)



بطل نهاوند

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

كان درس الدِّين اليوم عن غزوة تبوك وكان المدرِّس رائعاً في عرضه لتلك الغزوة التي شبّهها بغزوة الأحزاب (أو غزوة الخندق) ذلك أنَّ المسلمين أصيبوا في أوّلها بابتلاء عظيم، وأصابوا ــ في آخرها ــ النصر والأمن والطمأنينة والعزَّة والكرامة.

وكان فيما قاله الأستاذ:

ــ إنَّ سبب غزوة تبوك، تلك الحشود الروميّة على تخوم شبه الجزيرة العربية، التي تريد استئصال شأفة المسلمين، والقضاء على الإسلام في عُقْر داره.. في المدينة المنوّرة، ولحماية نشر الإسلام في بلاد الشام.

وقال الأستاذ:

ــ كان الوقت صيفاً قائظاً شديد الحرارة، وقد نضجت الثمار وصارت لذيذة، لذَّة الظّلال والأفياء والماء البارد القَرَاح ــ عندما أخبر الرسولُ القائد صلَّى الله عليه وسلَّم، أصحابَه بأنه يريد أن يحشد جيشاً، يهاجم به جموع الروم المتحشّدين على التُّخوم في بلاد الشام، قبل أن يتحرّكوا نحو المدينة.

واستغرب الصّحابة هذا التصريح بوجهة الجيش الإسلاميّ، لأنَّ النبيَّ كان في غزواته كلها يورّي ولا يصرِّح عن الوجهة التي يريدها.

خالد: لماذا أستاذ؟

الأستاذ: من أجل السّرِّيّة، حتى يباغتَ العدوَّ قبل أن يستعدّ، وعُنْصُرُ المباغتة مهمٌّ في كسب المعارك.

فؤاد: إذن.. ما الحكمة أو ما السبب الذي جعل النبيَّ الكريم يصرِّح عن وجهته في هذه الغزوة؟

الأستاذ: لأنَّها كانت من أصعب الغزوات، ومن أشقِّها على النفوس، فالحرُّ شديد، وقد حان موعد قطف الثِّمار.. والأهمُّ من ذلك، ليميز اللَّهُ الخبيثَ من الطيِّب، ويعرف معادن الرِّجال، فهذا رجل مجاهد، وذاك متقاعس، وذلك منافق.. هذا جاء بكل ما يملك، كما فعل أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، ولم يُبْقِ لعياله إلاَّ اللَّهَ ورسوله، وهذا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يأتي بنصف ماله، وهذا ذو النُّورين عثمانُ بنُ عفَّانَ رضي الله عنه يجهِّز جيش العسرة، ويُنْفق عليه إنفاقاً بَهَر المسلمين جميعاً، حتى إنَّ الرسول القائد عجبَ من كثرة ما أنفق عثمان، وقال:

«اللهمَّ ارضَ عن عثمانَ فإنّي عنه راضٍ».

وقال أيضاً:

«ما ضرَّ عثمانَ ما عملَ بعد اليوم».

فصاح الطلاب بصوت واحد:

ــ رضي الله عنه.

وقال الأستاذ:

ــ وكان في المسلمين مجاهدون فقراء، كانوا يرغبون في الجهاد، وجاؤوا إلى الرسول القائد، وقدَّموا أنفسهم له، وأبدَوْا رغبتهم في الجهاد معه، ولكنَّهم لا يجدون الدوابَّ التي تحملهم إلى أرض المعركة، وليس عندهم زادٌ يتبلَّغون به، فاعتذر لهم الرسول القائد، لأنه لا يجد ما يحملهم عليه: ﴿فتولَّوْا وأعينُهم تفيض من الدَّمع، حَزَناً ألاَّ يجدوا ما ينفقون﴾.

فسأل سليمان:

ــ هل تعرِّفُنا إلى هؤلاء الرجال أستاذ؟

أجاب الأستاذ:

ــ من هؤلاء البكّائين:

فقاطعه سليمان في استفهام وتعجُّب:

ــ البكّائين؟

قال الأستاذ:

ــ لقد أطلقَ المسلمون على أولئك الفقراء اسم (البكّائين). ألاَ تُعْجِبُك هذه التسميةُ يا سليمان؟

أجاب سليمان:

ــ إنَّها رائعة.. لها وَقْعٌ غريبٌ على القلب.. البكّاؤون.. صفة رائعة يا أستاذ.

فتابع الأستاذ حديثه:

ــ من أولئك البكّائين: الصحابيّ الجليل عُلْبَةُ بنُ زيد.. اسمعوا قصَّة هذا الفقير المجاهد، واحفظوها جيّداً، واستفيدوا من مغزاها أو مغازيها...

قام عُلْبةُ رضي الله عنه في جوف الليل يصلِّي، فصلَّى ما شاء الله له أن يصلِّي، ثم بكى بُكاءً مُرّاً، سالتْ فيه دموعُه غزيرةً سخينةً، ثمَّ شَخَصَ ببصره نحو السَّماء، وانطلقَ لسانُه يخاطب ربَّه الذي ليس بينه وبينه حجاب، وكان فيما كان يبتهل به:

«اللهمَّ إنَّك أمرتَ بالجهاد ورغَّبْتَ فيه، ثمَّ لم تجعل عندي ما أتقوَّى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه.. وإنِّي أتصدَّق على كلِّ مسلم بكلِّ مَظْلَمةٍ أصابني فيها في مالٍ أو جسدٍ أو عِرْضٍ».

الطلاب: الله أكبر.. الله أكبر.

الأستاذ: وأصبح عُلْبَةُ ــ كعادته ــ مع الناس، فقال رسول الله.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

الأستاذ: «أين المتصدِّقُ هذه الليلة؟».

فلم يقم أحد.

ثم قال عليه السلام:

«أين المتصدِّق؟ فليقم».

فقام إليه عُلْبَةُ فأخبره بما كان من أمره.. من القيام متهجِّداً، ومن البكاء والدعاء، فقال له رسول الله.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

الأستاذ: «أبشرْ ــ يا علبة ــ فوالذي نفسي بيده، لقد كُتبتْ في الزكاة المتقبّلة».

الطلاب: الله أكبر.. هنيئاً لك يا علبة.. ما أروعَ الإيمان!..

فؤاد: كم كان عدد جيش المسلمين أستاذ؟

كانوا ثلاثين ألفاً.. إنه أكبر جيش خرج مع الرسول القائد عليه السلام.

صادق: ولماذا سُمِّيَ جيشَ العُسْرة أستاذ؟

الأستاذ: لأنه تشكَّلَ في ظروف صعبة جداً.. الوقت: صيفٌ حارّ.. الأموال قليلة، وكذلك الخيول والجمال، حتى إنَّ الرجلين والثلاثة كانوا يتعاقبون على الجمل الواحد، وقد أصابهم عطشٌ شديد أثناء الطريق، حتى صاروا يذبحون الجمال، وينفضون أكراشَها، ليشربوا ماءها، فكانت العُسْرَةُ في الأموال، وفي الرَّواحل من الخيول والجمال، وفي الماء.

سليمان: يا لطيف!.

الأستاذ: واسمعوا حديث عمر بن الخطّاب عن هذه الغزوة، عندما سئل عنها. .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه:

خرجّنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلْنا منزلاً أصابَنا فيه عطشٌ، حتّى ظننّا رقابنا ستنقطع، حتى إنَّ الرجل لينحرُ بعيرَه (جَمَلَه) فيعتصر فَرْثَه (أيْ ما في كَرْشِه) فيشربه، ثمَّ يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصدِّيق:

يا رسول الله، إنَّ الله عوَّدك في الدُّعاء خيراً، فادعُ اللَّهَ لنا.

فقال النبيُّ: أوَ تُحبُّ ذلك؟

قال أبو بكر: نعمْ.

فرفعَ رسولُ الله يديه إلى السَّماء، فلم يرجعهما حتى أمطرتْ، فملأْنا ما معنا من آنية من ماء السَّماء، ثمَّ نظرنا إلى السماء، فلم نجد السَّحابة جاوزت العسكر.

فهتفْنا جميعاً لهذه المعجزة العظيمة، وبعد أن هدأت الضجَّة التي أحدثها هتافنا، سألتُ الأستاذ عن حشود الروم فقال:

ــ كانت جموع الروم تتألف من قوات نظاميّة كثيرة، يساندها نصارى العرب ومشركوهم من قبائل لخم وجذام وعاملة وغسّان. وقد وزَّعَ هِرَقْلُ ملك الرُّوم رواتبَ سنةٍ كاملة على قوّاته النظاميَّة، كما وزَّع كثيراً من الأموال على القبائل العربية الخاضعة لسيطرته، تشجيعاً لهم، من أجل معاونة جيشه في قتال إخوانهم العرب المسلمين.

فعلَّق خالد:

ــ يعني. . يريد شراء ذممهم وضمائرهم لمقاتلة إخوانهم العرب.

فقال سليمان:

ــ ليسوا إخوانهم. . إنَّهم خونة مارقون متآمرون وبلا ذمَّة ولا ضمير، إنَّهم مثلُ العرب الذين يضعون أنفسهم في هذه الأيام، في خدمة الاستعمار والصهيونيَّة.

وسألتُ الأستاذ:

ـ متى حدثتْ غزوة تبوك؟

فأجاب:

ـ في شهر رجب من السنة الهجريّة التاسعة. غادر الجيش الإسلاميُّ المدينة المنورة في رجب، وعاد إليها في رمضان، وقد أمضى في الذهاب بضعة عشر يوماً، ومثلَها في الإياب، كما أقام الجيش في تبوك عشرين يوماً، كان الرسول القائد يمدُّ بصره وراء الصَّحراء، ويمسح بناظريه الآفاق، لعلَّه يطَّلع على أثرٍ من حشود الروم، فلمَّا لم يجدْ أحداً. قفلَ راجعاً إلى المدينة المنوَّرة، بعد أنْ أمَّنَ الرسول القائد حدودَه الشّمالية، بعقد عدَّة معاهدات مع سكّانها، فقد أجرى مصالحة مع صاحب أيلة، ومصالحة مع أهل الجرباء وأذرح، ومصالحة مع أهل دومة الجندل، وبذلك محا الآثار النفسيَّة التي خلّفها انسحاب جيش المسلمين من (مؤتة) في نفوس العرب، وعزَّز هيبةَ الإسلام والمسلمين في نفوس الروم وحلفائهم من العرب، إذ انسحبوا من أرض المعركة، عندما علموا بضخامة جيش المسلمين، كما أمَّن حرّيّة نشر الدعوة إلى الإسلام في بلاد الشام.

وعندما سكت الأستاذ سألتُه عن البكّائين وقلت:

ـ لم تذكر لنا سوى بكّاءٍ واحدٍ يا أستاذ، هو عُلْبةُ بن زيد، فهل تذكر لنا بكّاء آخر؟

ابتسم الأستاذ وقال:

ـ كما تحبّ يا ولدي يا صادق.

ثمَّ استدار الأستاذ نحو السبُّورة، وكتب عليها:

«أبناء مقرِّن».

ثم استدار باتجاهنا وقال:

ـ من أولئك البكّائين سبعةُ إخوة أشقّاء، هم أولاد عمرو بن مقرّن المزني: النعمان، ونعيم، وعبد الله، وسويد، وسنان، وعبد الرحمن، ومعقل.

كان هؤلاء الإخوة من الأعراب الصادقين من قبيلة (مُزَيْنَة) جاؤوا إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم، وشهدوا المشاهد مع الرسول القائد، كما ذكرْنا قبل قليل، ولكنَّ الرسول القائد ردَّهم لأنه لا يجد ما يحملهم عليه، فعادوا مكسوري النفس، لأنّهم لن يشاركوا في تلك الغزوة الخطيرة، رجعوا وأعينُهم تبكي دماً بدل الدموع، ولكنّ الله هيّأ لهم من يقدّم لهم النُّوق التي تحملهم، والطعام الذي يكفيهم، وشاركوا في غزوة تبوك، ونالوا شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد، وأنزل الله فيهم وفي أمثالهم من البكّائين قرآناً يُتْلى إلى يوم القيامة.

وهدأتْ حركة الأستاذ، ووضع كفّه اليمنى على اليسرى، ثم تلا قول الله تعالى:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ليس على الضُّعَفاء، ولا على المرضىٰ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ، إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل، واللَّهُ غفورٌ رحيم. ولا على الذين إذا ما أَتَوْكَ لتحملهم، قلتَ: لا أجدُ ما أحملُكم عليه، تَوَلَّوْا وأعينُهم تفيض من الدَّمع، حَزَناً ألاَّ يجدوا ما ينفقون﴾.

ثم أفاض الأستاذ في الحديث عن هؤلاء الإخوة السبعة، وتوقَّف طويلاً وهو يتحدَّث عن أخيهم الأكبر: النعمان الصحابـيّ المؤمن المجاهد الشهيد، كم وددتُ لو أني سجَّلتُ ذلك الحديث عن ذلك البطل الشهيد: النُّعمان بن مقرّن.

عدتُ إلى البيت، ولكمةُ الصّحابـيّ الجليل عبد الله بن مسعود التي ختم بها الأستاذُ حديثه عن النعمان وإخوته، ما تزال ترنّ في أذني:

«إنَّ للإيمان بيوتاً، وإنَّ للنفاق بيوتاً، وإنَّ بيت بني مقرّن من بيوت الإيمان».

كما ترنُّ في مسامعي، وتهزُّ كياني، تلك الأنشودة التي استقبلت بها صبايا المهاجرين والأنصار، الرسولَ القائد، وجيشه المنتصر العائد من تبوك:

طلــعَ البــدرُ علينــا مــن ثنيّــات الــوداع
وجــبَ الشكــرُ علينــا مــا دعــا لله داع

ولكنَّ الوقع الأكبر كان لكلمات الأستاذ عن أولئك الفقراء الذين كانوا يرغبون في الجهاد في سبيل الله تحت لواء الرسول القائد، ولم يستطيعوا، لضيق ذات اليد. . قال الأستاذ:

ـ لم ينسَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أصحابَ القلوب الكبيرة الذين لم تمكِّنْهم ظروفُهم المادِّيَّةُ من الخروج إلى غزوة تبوك، فتخلَّفوا راغمين، والعبراتُ تملأ عيونهم. . عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة فقال:

«إنَّ في المدينة أقواماً، ما سِرْتُم مسيراً، ولا قطعْتم وادياً إلاَّ كانوا معكم.

فقالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: بالمدينة. حَبَسَهُم العُذْرُ».

وعلَّق الأستاذ على هذا الحديث العظيم بقوله:

بهذه المواساة الرقيقة كرَّم النبـيُّ الرِّجال الذين شيَّعوه بقلوبهم، وهو ينطلق إلى الروم، فأصلحَ بالَهم، وأزاحَ همَّاً ثقيلاً عن أفئدتهم.

عدتُ إلى البيت، والمعاني الكبيرة، تملأ قلبـي، وتثير عقلي. . فقراءُ المسلمين يريدون أن يجاهدوا في سبيل الله، في غزوة خطيرة، خطيرة من حيثُ العدوُّ المتربِّص، ومن حيثُ الحرُّ الشديد، وفِقْدانُ الراحلة والزَّاد، ومن حيثُ العطشُ الذي يكاد يقطع الأعناق. . يبكون لأنَّهم حِيْلَ بينهم وبين القتال في سبيل الله، ونحن نتقاعس عن الجهاد وقد غدا فرْضَ عَيْنٍ على المسلمين كافّة، بعد أن احتُلّتْ أرضُهم، وانتُهكتْ مقدَّساتُهم، وسُفحت دماؤهم، وهُدِّمتْ مساكنُهم، واستولى اليهود على قدسهم وعلى المسجد الأقصى. . عدوانٌ صليبـيٌّ في البوسنة

والهرسك.. في الشيشان.. في أذربيجان.. في بلاد القوقاز، في الهند، في أوروبا، في أمريكا.. في كلّ مكان.. كأنَّ حرباً عالمية شعواء يشنُّها أعداء الله والإنسان على المسلمين في كلّ مكان.. تُرى.. هل هذه الحروب والكوارث التي تنزلُ بالمسلمين اليوم، هي انتقامٌ ربَّانيٌّ من المسلمين الذين قعدوا عن الجهاد، وأخلدوا إلى الأرض، وألهاهم التكاثر في الأموال، والتطاول في البنيان، والاستعلاء الأجوف.. استعلاء بعضهم على بعض، حتى صاروا أعزّةً على المؤمنين، أذلَّةً أمام الكافرين؟

عدتُ إلى البيت، وصلَّيتُ وتغدَّيتُ، ثمَّ أويتُ إلى فراشي، وقد سيطر على أقطار عقلي، وعلى جوانب نفسي، تلك المعاني التي أثارها الأستاذ وهو يتحدّث عن البكّائين.. عن النّعمان بن مقرّن وإخوته المجاهدين الأبرار.

وفيما أنا بين النائم واليقظان، شاهدتُ رجلاً وديعاً يتقدّم نحوي بخطوات ثابتة، ووجهٍ طلْقٍ بشوش، فنهضْتُ أستقبله، فاستقبلني بحنان أب، وقال بتواضعٍ جمّ:

ـ خمِّنْ مَنْ أكون؟

وقبل أن أفتح فمي لأتكلَّم، بَرَزَتْ أختي صادقةُ وقالت وهي تنظر إليه في خَفَر.

ـ هذا الوجهُ السَّمْحُ ليس غريباً عليّ يا عمّاه.

وقلتُ أنا:

ـ وهذا شعوري يا صادقة..

ثمَّ التفتُّ إليه وقلت:

ـ أنا صادق، وهذه أختي صادقة.

فقال الشيخ الجليل:

ـ لا ينبغي لمسلمٍ ولا لمسلمةٍ إلاَّ أن يكونا صادقين.. الإسلام دين الصِّدق.

قلت:

ـ أعني أنَّ اسمي صادق، وأنَّ اسم أختي هذه: صادقة.

قال الشيخ:

ـ لكلٍّ مسمًّى من اسمه نصيب.

قلت:

ـ قد قدَّمْنا أنفسَنا لك يا سيِّدي، فهل تتكرّم علينا بتقديم اسمك الكريم؟

قال الشيخ الوقور، وقد انفرجتْ شفتاه عن أسنان كاللؤلؤ المنضود:

قلتُ لك يا صادق: خمِّنْ مَنْ أكون؟ فأنا الولد الأكبر لعشرة أبناء من قبيلة مُزَينة، جاؤوا من البادية مع أربع مئة امرىء من مُزَيْنَة، وأعلنوا إسلامهم عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

كانت يدي ما تزال في يد الشيخ الوقور، فسحبْتُه بحبّ وتوقير إلى المقعد الوثير الوحيد الذي في غرفتي، حتى إذا استقرَّ جالساً، سحبتُ يدي من يده، وتراجعت نحو سريري فجلست معي أختي قبالتَه ثم أطرقت وأنا أفكّر فيمن يكون هذا الشيخ المُزَنيّ، ثم قلت:

ـ أعرف رجلاً عظيماً من مزينة، جاء مع إخوته الستة على رأس أربع مئة رجل من قبيلة مزينة، وأسلمَ وأسلموا معه جميعاً.

سأل الشيخ الوقور الوديع:

ـ ما اسم ذلك الرجل؟

قلت:

ـ اسمه: النُّعمان بن مقرِّن المُزَنيّ.

فانفرجتْ أساريرُ الرجل عن العِقْد اللؤلؤيّ وقال:

ـ أنا ذلك الرجل.

فهَبَبْتُ قائماً وأنا أهتف مرحِّباً:

ـ يا مرحباً بصاحب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأهلاً بك أيُّها المجاهد الشهيد.

أهلاً بالبكَّاء أخي البكَّائين.

ثمَّ أكببْتُ على يد الشيخ أقبِّلها وأبلِّلُها بدموع الفرح، وحاول الشيخُ سحْبَ يدِه من يدي، ولكنِّي كنتُ ممسكاً بها بكلتا يديّ، ثمَّ تذكَّرتُ أنَّ الامتثال خيرٌ من الأدب، فامتثلْتُ لرغبة الشيخ الوقور، وتركتُه يسحبُ يَده من بين يديّ، وهو يستغفر الله لي.

وأحسسْتُ بيد أختي تسحبُني نحو السرير الذي كنّا نجلس عليه، فتراجعْتُ نحوه، واتخذتُ مكاناً لي إلى جانب صادقة، وعيناي مشدودتان إلى القائد الشهيد: النُّعمان بن مقرِّن.

وشاهدتُ سيِّدي القائد يكفكف دموعه، فقلت:

ـ أنا أبكي من شدّة الفرح بلقائك يا سيِّدي، فما الذي يبكيك؟

قال النُّعمان البكَّاء:

ـ أبكي فرحاً بك، وحمداً لله الذي أعزَّنا بالإسلام، وآخى بيننا على تطاول الأزمان، وقد أذكرْتَني ما لستُ أنساه.. أذكرْتَني يوم كنَّا في المدينة المنوَّرة فقراء اليد، أغنياء القلوب التي عمرها الإيمان بالأخوَّة والحبّ والجهاد في سبيل الله، والاستشهاد من أجل نُصْرة هذا الدين العظيم..

أذكرْتني ما لست أنساه من صحبة النبيِّ الكريم، ومن جهاده المبرور، ومن شجاعته وإقدامه، فقد كان دائماً في الطليعة، يتقدَّم الصُّفوف، ويقاتل دون أصحابه،

ويعرِّض نفسه للأخطار، وأصحابُه يفتدونه بأرواحهم، وسلامتُه مقدَّمةٌ على سلامتهم، فهو ــ بأبـي هو وأمي ــ هو الحبيب، وهو السيِّد القائد، وهو الأب الرحيم، وهو رسول الله، وهو نبـيُّ الرحمة. عليه أفضل الصلاة والسلام. .

أذكرْتَني ما لستُ أنساه. . يوم جئتُ وإخوتي إليه، وقد بعْنا أنفسَنا لله، وعرضْنا أنفسَنا للجهاد في سبيل الله، ورغبْنا إليه أن يصحبنا معه في غزوة تبوك، ولكنَّه ــ بأبـي هو وأمي ــ اعتذر. . اعتذر لأنه لا يجد ما يحملنا عليه، فغادرْنا مجلسَه الشريف، وأعيُننا تفيض من الدَّمع، لأننا لن نقاتل دون رسول الله، ولن نموت تحت لوائه الشَّريف.

ومسح الصحابـيُّ الجليل الدَّمَعاتِ التي كانت تسيل على وجنتيه، فقالت صادقة، كأنها تريد تغيير مجرى الحديث، وتخفيف وطأة الذكرى على هذا الشيخ الجليل:

ــ عندنا مثلٌ يقول يا جدّي العزيز: مثل الأطرش في الزفّة. . وأنا بينكما، كالطرشاء الخرساء التي لا تدرك من الحديث الذي تسمعه إلاَّ بعض أطرافه، فهل تسمح لي بتوجيه الأسئلة؟

النعمان: تفضَّلي يا ابنتي.

صادقة: هل تعرِّفنا إلى شخصك الكريم يا جدِّي؟

النُّعمان: أنا النعمان بن عمرو بن مقرِّن.

صادقة: إذن. . أنت ــ يا جدِّي ــ ابن عمرو ولستَ ابن مقرِّن!.

النعمان: أجلْ. . أنا ابن عمرو بن مقرِّن، وإن كان الناس يعرفوننا بأبناء مقرِّن. . أعني إخوتي وشخصي الضعيف.

صادقة: كأنك قلتَ، يا جدِّي، إنكم من قبيلة مُزَينة؟

النعمان: أجلْ يا صادقة. . والنِّسبةُ إليها: مُزَني.

صادقة: وكُنْيتُك؟

النعمان: أبو عمرو. . كُنيتي أبو عمرو. . عَمْرٌو والدي، وعمرٌو ولدي أيضاً.

صادقة: أين كنتم تسكنون؟

النعمان: كنّا ننزل جبال الحجاز، ناحية البحر الأحمر، غربيَّ المدينة المنوَّرة، على بُعد ليلتين من المدينة المنوَّرة.

صادقة: مَنْ مزينة يا جدِّي؟

النعمان: مزينة التي تنتسب إليها قبيلتنا، وتتسمَّى باسمها، هي مزينة بنت كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن إلحاف بن قضاعة.

صادق: ماذا عن قبيلتك هذه يا سيِّدي؟

النعمان: قبيلة كسائر القبائل العربية. . كانت تعبد صنماً اسمه (سُواع) وصنماً آخر اسمه (نُهْم). وقد حالفتْ مزينةُ قبيلةَ الأوس في يثرب ــ كما كان اسمها في الجاهلية ــ وحاربَتْ معها ضدَّ الخزرج يوم بُعَاث، قبل الهجرة المباركة التي آختْ بين الأوس والخزرج، ونزعت الشَّحْناء والبغضاء والعداوة من نفوس أبنائهما.

صادق: وكان لليهود اليدُ الطُّولى في تلك المنازعات والحروب بين الأشقَّاء في المدينة.

النعمان: اليهود سببُ كلِّ بلاء وفساد في بلاد العرب، في يثرب، وفي مكّة، وفي اليمن.

صادق: وفي كلّ بقاع الأرض.

صادقة: هل تحدّثنا عن إسلامك يا جدِّي؟

النعمان: كان الإسلام قد فشا في قبيلتي مزينة، فقَدِمْنا إلى المدينة المنوَّرة

أنا وإخوتي مع أربع مئة من مزينة ــ كما قلت لكم آنفاً ــ وأعلنّا إسلامنا في حضرته الشريفة. . حضرة سيِّد الخلق، النبـيِّ الأميِّ عليه الصلاة والسلام.

صادقة: هل كنتَ أكبر إخوتك الستة يا جدِّي؟

النعمان: بل أنا أكبر إخوتي العشرة. . كنا عشرة إخوة، ولكنَّ الذين جاؤوا مع وفد مزينة كانوا سبعة، كنتُ واحداً منهم.

صادق: وكنتَ سيِّد القبيلة يا سيِّدي.

النعمان: الحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

صادقة: متى كان ذلك يا جدِّي؟

النعمان: في رجب من العام الرابع للهجرة.

صادقة: قلتَ ــ يا جدّي ــ إنَّ الإسلام كان قد فشا في (مُزَيْنَةَ) فهل معنى هذا أنك لم تكن أول من أسلم في القبيلة؟

النعمان: أجلْ. . لم أكن من أوائل من أسلم. . لقد سبقني إلى الإسلام بعضُ رجال القبيلة.

صادق: روى لنا أستاذنا: أنَّ عَمْرَو بن عَوْفٍ المزني كان قديم الإسلام، وقد روى الإمامُ البخاريُّ عنه أنه قال:

«كنّا مع النبـيّ صلَّى الله عليه وسلَّم حين قدِمَ المدينة فصلَّى نحو بيت المقدس سبعة عشرَ شهراً». . هذا قبل أن يصير البيتُ الحرام قِبْلةَ المسلمين.

ومعنى هذا، أنَّ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة حدثتْ وفي بني مزينة مسلمون.

النعمان: وهذا نادرٌ بين الأعراب.

صادق: لماذا يا سيِّدي؟

النعمان: لأنَّ الأعراب ﴿أشدُّ كُفراً ونفاقاً، وأجدرُ ألَّا يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللَّهُ على رسوله، واللَّهُ عليمٌ حكيم﴾.

صادق: صدق الله العظيم.

صادقة: وقال الله تعالى في الأعراب، ولستَ منهم يا جدِّي العزيز:

﴿ومن الأعراب مَنْ يتَّخذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً، ويتربَّصُ بكم الدوائر، عليهم دائرةُ السَّوْء، واللَّهُ سميعٌ عليم﴾، صدق الله العظيم.

صادق: وهذا يعني أنَّ الله اطَّلع على ما في قلوبكم من الإيمان والإخلاص، فمدحكم، وأثنى عليكم من بين سائر الأعراب فقال:

﴿ومن الأعراب مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتَّخذُ ما ينفقُ قُرُباتٍ عند الله وصلوات الرسول، ألا إنَّها قُرْبةٌ لهم، سيدخلُهم اللَّهُ في رحمته. إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾، صدق الله العظيم.

صادقة: ثمَّ ماذا يا جدِّي العزيز؟

النُّعمان: أسلمتُ وإخوتي، وأقمنا في المدينة المنوَّرة، إلى جانب رسول اللَّهِ.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

نتعلَّم منه أمور ديننا، ونصحبه في غزواته، ونقيم على خدمته.

صادقة: أيَّ الغزوات غزوتموها مع الرسول القائد يا سيِّدي؟

النعمان: حضرْنا غزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وكنّا مع النبيِّ الكريم في الحديبية، وفي عُمْرة القضاء، وكنّا في غزوة خيبر، وفي فتح مكة وفي تبوك.

صادقة: نريد أن نسمع منك ـ يا جدِّي العزيز ـ بعض ذكرياتك الجهادية.

صادق: وغير الجهادية، بعد أن أسلمتَ وإخوتك الأبرار يا سيِّدي.

النعمان: الذكريات كثيرة، وقد عفا الزمن على كثير منها، ولعلي أتذكَّر شيئاً يفيدكم. .

صادقة: كلُّ كلمة نسمعها من صاحب الرسول القائد مفيدة بإذن الله.

النعمان: من تلك الذكريات المفيدة، وإن تكن مؤلمة، أني كنتُ وإخوتي الستة في بيتٍ واحد في المدينة، وكانت لنا خادمة واحدة تخدمنا، فأساءت مرةً في تصرُّفها، فلطمها أحدنا على وجهها، فغضب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ونهانا عن ضرب الوجه، وأمرنا بأن نعتقها، فأعتقناها.

صادقة (مستعبرة): ما أروعَك وأحنَّك يا سيِّدي يا رسول الله!. ما أرحمك وما ألطفك بالضعفاء.

صادق: ما يزال الناس في أيامنا هذه، يا سيِّدي، يمتهنون المرأة الحُرّة ويحتقرونها، ويهملونها، ويسبّونها ويضربونها، ويحسبون أنَّهم يحقِّقون رجولتهم بهذه الأفعال الشنيعة.

النعمان: وهم مسلمون؟

صادق: ويحسبون هذا من الإسلام.

يا ويحهم!. أنسُوا وصايا رسول الله بالنِّساء حتى وهو في النَّزْع الأخير ـ بأبـي هو وأمي ـ؟

هل نسُوا أنن الظلم ظلمات يوم القيامة؟

هل نسُوا أنَّهم أبناء النساء، وإخوة النساء، وآباء البنات؟.

صادقة: دعنا من هذه الحكاية، يا جدِّي، فهي مأساة من مآسي كثيرة تعيشها مجتمعاتنا المتخلِّفة التي اختلطت الجاهلية فيها بالإسلام، حتى صرنا نرى من يزعمون أنَّهم مسلمون، يحزنون إذا بُشِّروا أو إذا قيل لهم: إنَّ نساءهم قد ولدْنَ بنتاً أو أكثر. .

النعمان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُه مُسْوَدّاً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به، أيُمْسِكُه على هُوْنٍ أم يَدُسُّه في التراب؟ ألا ساء ما يحكُمون﴾.

صادق: تريد الحقَّ يا سيِّدي؟

النعمان: نعمْ يا بنيّ..

صادق: كنتُ أتمنَّى أن تكون أختي صادقة أخاً صبيّاً.

النعمان: ولماذا هذه الأمنية يا ولدي؟ إني أراها فتاة ذكيَّة مثلك.

صادق: لأني كلّما تصوّرتُ أنها سوف تتزوج بعد بضع سنين، ينتابني الحزن والكآبة والخوف عليها من زوج جاهليّ أحمق، يهينها ولا يحترمها ولا يكرمها.

النعمان: ولماذا لا تفترض أنَّها سوف تتزوج من شابّ صالح يكرمها ويعرف لها قدرها؟

صادق: هيهات يا سيِّدي هيهات.. حتى الصالحون منهم، أو من يزعم منهم الصَّلاح، يحاولون دفْنَها في الحياة، بحجَّة المحافظة على الدِّين.

صادقة: بينما النساء الفاجرات المتبرِّجات، يعبثْنَ بأزواجهنَّ، لأنَّ أكثرهنَّ من السَّليطات المتسلِّطات على أزواجهنَّ، وأزواجهُنَّ يعطونهنَّ من (الحرِّيَّة) وباسم (التقدميَّة) ما يفسدهنَّ ويفسد المجتمع.

النعمان: أعوذ بالله من هذا الواقع القائم على الإفراط والتفريط.

صادقة: لذلك قلت لكم: دعونا من هذا، ولنتابع معك ذكرياتك يا جدِّي.

النعمان: لا بأس.. على أن تعداني بإثارة هذا الموضوع المهمّ في أوساط المتديِّنين.. وإلاّ.. كان المتديِّنون مفرِّطين ومنفِّرين والعياذ بالله.

ابتسمت صادقة وهي تهزّ رأسها في حزن واضح يستطيع قراءته في ابتسامتها وعينيها كلُّ ذي إحساس، ثم قالت:

ـ هل نتابع يا جدِّي؟

أجاب الصّحابـيّ الجليل في حزن ظاهر:

ـ نتابع يا ابنتي. .

كان إسلامنا في ظرفٍ عصيب. . في فترةٍ كانت حافلة بالغدر والتآمر من جانب اليهود، ومن جانب القبائل العربية المشركة، وبالحرب الشعواء التي كانت تشنُّها قريش على رسول الله وعلى الذين آمنوا معه. . حربٍ لا هوادة فيها. . وكان في إسلامنا وسُكْنانا في المدينة المنوّرة، عزاءٌ لرسول الله ولأصحابه الكرام.

فقالت صادقة:

ـ هذا يدلُّ على صدق إسلامكم، وعُمْق إيمانكم بالله ورسوله، وعلى أنكم مستعدّون للبذل والتضحية بالنفس والراحة والمال، في إقبالكم على الله ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وسألتُ الشيخ الوقور عن الأحداث التي سبقتْ إسلامَه وإسلامَ إخوته وقبيلته، فقال:

ـ كانت أحداثاً دمويّة، امتحنَ الله فيها إيمانَ المسلمين، وثباتَهم على هذا الدِّين، ففي السنة الثالثة كانت غزوة أحد، واستشهاد البطل الصِّنديد حمزة في سبعين شهيداً أسالوا نهراً من دموع نساء المدينة، وفي العام الرابع، قُبَيلَ إسلامنا، كانت مأساة (ماء الرَّجيع) عندما غدر الأعراب بعشرة من أصحاب الرسول، خرجوا معهم ليفقِّهوهم في الدِّين، ويعلِّموهم القرآن العظيم، وتكرَّر هذا الحادث عند (بئر معونة) عندما قدم عامر بن مالك إلى رسول الله يطلب دعاة إلى (نجد) فبعث النبـيُّ معه أربعين من خيار أصحابه، وغدر الأعراب بهم، فاستُشهدوا جميعاً إلَّا واحداً منهم تركوه وفيه رَمَقٌ، ليشهدَ على غدر الأعراب من بني سليم، وفي تلك الآونة حاول يهود بني النضير قَتْلَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

فقالت صادقة وهي تمسح دمعاتٍ كانت تسحُّ من عينيها المحمرَّتين:

ــ بنفسي أفديك يا سيِّدي يا رسول الله، فكم لاقيتَ من أولئك الأعراب الأوباش من ألوان الغدر والأذى، وكأنهم يهود في غدرهم وقسوتهم.

فتلا الشيخ الجليل قول الله تعالى عن الأعراب في تأثر عميق:

﴿وممَّنْ حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النّفاق، لا تعلَمُهم، نحن نعلَمُهم، سنعذِّبُهم مرّتين ثمَّ يُرَدّون إلى عذاب عظيم﴾.

وقلتُ أنا:

ــ وبعد إسلامكم، كانت غزوة الخندق.

فقال الشيخ الجليل:

ــ ويا لها من غزوة.. تآمرتْ فيها القبائلُ العربية مع قريش مع اليهود لاجتثاث الإسلام من جذوره، بالقضاء على رسوله الأمين، وعلى الصَّحابة الكرام.. كانتْ غزوةً هائلة، كان عشرةُ آلاف مشرك يحيطون بالمدينة المنوَّرة من الخارج، وكان اليهود المتآمرون معهم يتربَّصون بالمسلمين لينقضّوا عليهم من حصونهم عند أطراف المدينة، وكان الرسول العظيم على رأس ثلاثة آلاف مقاتل مسلم، وكان البرد القارص، وكان ما كان من فزعٍ على الدعوة الوليدة، وعلى الرسول الكريم الذي كان مع إخوانه يحفر الخندق، ويسهر على دعوته وأصحابه، ويخشى غدْرَ اليهود من الداخل، بعد أن نقضوا العهود والمواثيق كعادتهم.

وسألتْ صادقةُ عن طول الخندق، فأجاب النعمان المجاهد:

ــ كان اثني عشر ألفَ ذراع طولاً.

ــ أي حوالي ستةِ آلاف متر.

ــ وكان عُمْقُه لا يقلُّ عن خمسة أذرع، وكان عرضُه أكثر من ذلك.

وسألتْ صادقةُ:

ـ كم يوماً استغرق معكم حَفْرَ الخندق يا جدّي؟

النعمان: ستة أيام.

صادقة: في ستة أيام حفرتم ذلك الخندق الطويل العريض العميق؟

النعمان: كان سلمانُ الفارسيُّ الذي أشار على النبيّ بحفر الخندق، يعمل عمل عشرة رجال، وكنّا، ونحن نرى رسول الله يحفر بيديه الطاهرتين، نزداد حماسةً وحميّةً، فنعمل ولا نتعب، وكانت المعجزات التي ظهرت لنا، دافعاً آخر على العلم.

صادق: هل تذكر لنا معجزة واحدة يا سيِّدي؟

النعمان: أستطيع أن أذكر لكم أكثر من معجزة شاهدتُها بعينيّ هاتين، كما شاهدها كثير من الصَّحابة الكرام، فزادتْهم إيماناً وتصديقاً بنبوّة الرسول الكريم.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

النعمان: من تلك المعجزات التي شهدْناها، أنَّنا كنَّا نحفر الخندق، فاشتدَّتْ علينا كُدْيَةٌ.

صادق: عفواً سيِّدي المجاهد.. ما معنى الكُدْيَة؟

النعمان: الكُدْيَة هي الأرض الغليظة الصُّلبة التي لا يعمل فيها الفأس. فشكوناها إلى الرسول العظيم، فدعا بإناء ماء، فتَفَل فيه، ثم دعا بما شاء الله له أن يدعوَ به، ثمَّ نَضَحَ ذلك الماء على تلك الأرض الشَّديدة القاسية، فتفتَّتْ حتى صارت كالكَثِيْبِ من الرَّمْل، لا تردُّ فأساً ولا مِسْحاة.

صادقة: الله أكبر.. الله أكبر.

صادق: والمعجزة الثانية؟

النعمان: جاءت بنتٌ صغيرة بحفنة من تمر إلى أبيها بشير بن سعد، وخالها عبد الله بن رواحة، لغدائهما، ومرّت برسول الله.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

النعمان: فناداها النبيُّ الكريم، وسألها عمَّا معها، فأخبرْته، فقال لها: هاتيه. فصبَّتْه في كفّي الرسول الكريم، فما ملأ التَّمرُ كفَّيه، ثم أمرَ الرسولُ بثوبٍ فبُسِطَ له، ثمَّ دحا بالتَّمر عليه، فتبدَّد فوق الثوب، ثم قال لأحد أصحابه: اصرخْ في أهل الخندق، أن هلمُّوا إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى شبع أهل الخندق جميعاً، والتمرُ يزيد، حتى صار يسقط من أطراف الثوب.

فهتفْنا.. صادقة وأنا: الله أكبر.. الله أكبر.

ثمَّ طلبتُ منه المزيد فقال:

ـ كانت لجابر بن عبد الله شُوَيْهةُ (أي شاةٌ صغيرة) فأمر زوجته فذبحتْها وشوتْها، وخبزتْ معها خبز شعير، ثمَّ دعا جابرٌ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليتعشَّى منها، بعد الانتهاء من حفر الخندق.

فقاطعتْه صادقةُ وسألتْه:

ـ هل كنتم تعملون في النهار فقط يا جدِّي؟

أجاب الصحابيُّ الجليل النعمان بن مقرِّن:

ـ أجلْ يا صادقة.. كنَّا نعمل طوالَ النهار، فإذا أمسينا انصرفْنا إلى بيوتنا.

ـ نعمْ يا سيِّدي.

قال النعمان:

ـ فأمر الرسولُ منادياً فنادى في المعسكر: أنْ هلمُّوا مع رسول الله إلى بيت جابر بن عبد الله.

ـ وذهبتم كلُّكم؟

ـ أجلْ يا صادقة. . ذهبْنا جميعاً مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فبَرَكَ رسولُ الله، وسمَّى الله، ثم أكل من الشُّويهة حتى شبع، ثم أكلْنا جميعاً حتى شبعْنا، وكان كلَّما فرغ قومٌ من الطعام قاموا وجاء ناس آخرون، حتى صَدَر أهلُ الخندق عنها.

فعلا هتافنا أنا وصادقة، لهذه المعجزة العظيمة، وتمَّنيتُ لو كنتُ مع أهل الخندق، فأفوزَ فوزاً عظيماً.

وقال النعمان القائد الدَّمث الوديع:

ـ ومما أذكره في تلك الغزوة الرَّعيبة، أننا فيما كنّا نحفر الخندق، برزتْ لنا صخرة ضخمة، حاولنا أنا وسلمان وحذيفة وعمرو بن عوف المزني أن نكسرها، فأخفقْنا، فاستنجدْنا برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فضرب الصَّخرةَ ضربةً فصدَّعها، وبَرَقَتْ منها برقةٌ أضاءتْ ما بين جانبـي المدينة، كأنها مصباح في جوف بيت مظلم، فكبَّر الرسولُ تكبيرَ فتح وكبَّرَ المسلمون، ثمَّ ضربها ضربة ثانية فصدَّعها، وبَرَقَ منها برقةٌ أضاءت ما بين جانبـي المدينة، حتَّى لكأنَّ مصباحاً في جوف بيتٍ مظلم، فكبَّر الرسولُ تكبيرَ فتحٍ وكبَّر المسلمون، ثمَّ ضربها رسول الله الضربة الثالثة فكسرها، وبرقت منها برقةٌ أضاءت ما بين جانبـي المدينة، حتَّى لكأنَّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبَّر الرسولُ تكبيرَ فتحٍ وكبَّر المسلمون.

وكبَّرنا أنا وصادقة، ورفعْنا أصواتنا بالتكبير، وشاركَنا سيِّدي النّعمانُ في التكبير ثمَّ تابع يقول:

ـ وسأل سلمانُ وسأل المسلمون رسولَ الله عن ذلك البرق الذي كان يخرج كالموج، وعن تكبيره عليه السلام بعد كلّ ضربة، فقال عليه الصلاة والسلام:

ضربتُ الضربة الأولى، فبَرَقَ الذي رأيتم، فأضاءت لي منها قصورُ الحِيْرة ومدائن كسرى كأنَّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أنَّ أمتي ظاهرة عليها.

فكبَّرتُ أنا وصادقة في فرح، بينما كان النعمان الجليل يقول راوياً عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

ـ ثمَّ ضربتُ ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، فأضاءت لي منها قصورُ الحمر من أرض الروم كأنَّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أنَّ أمتي ظاهرة عليها.

ونظر إلينا النُّعمانُ كأنَّه منَّا أن نهتف ونكبِّر، ولكنَّنا كنَّا مأخوذين بهذه البُشْرَيَات، فلزمْنا الصَّمت، فتابع يقول:

ـ ثمَّ ضربتُ ضربتي الثالثة، فبرق منها الذي رأيتم، فأضاءت لي منها قصورُ صنعاء كأنَّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أنَّ أمَّتي ظاهرة عليها، فأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر.

وسكت النعمان الرائع لحظة ثم تابع يقول:

ـ وجعل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يصف لسلمانَ قَصْرَ كسرى في المدائن، وكان سلمان يقول له: صَدَقْتَ، إنَّ هذه صفة القصر، وأشهد أنك رسول الله.

صادقة: وأنا أشهد أنه رسول الله.

النعمان: فقال الرسول الكريم مبشِّراً:

هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي..

ثم التفتَ النبيُّ الكريم إلى سلمان وقال:

يا سلمان. لتفتحن الشام، ويهرب هِرَقْلُ إلى أقصى مملكته، وتظهرون على الشام، ولا ينازعكم أحد. ولتفتحنّ اليمن، ولتفتحنّ هذا المشرق، ويُقتل كسرى، فلا يكون كسرى بعده.

صادقة: وقد كان ذلك يا جدِّي؟

النعمان: أجلْ يا صادقة، وشهدْتُ بنفسي فتح المدائن، ورأيت قصر الأبيض، قصْرَ كسرى الذي وصفه لنا رسول الله.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

صادقة: وبعد الخندق يا جدِّي؟

النعمان: قلت لكم: شهدتُ وإخوتي المشاهدَ كلَّها مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. فقد غزونا تحت لواء سيّدي رسول الله بني قريظة اليهود الذين خانوا رسول الله والمسلمين، ونقضوا العهد الذي عاهدوا النبـيَّ عليه، فحاصرناهم حتى استنزلناهم من حصونهم، ونزلوا على حكم الصحابـيِّ الجليل الشهيد سعد بن معاذ، فحكمَ بقتل رجالهم، وتقسيم أموالهم، وسَبْـيِ ذراريهم ونسائهم.

صادق: خونة.. غدّارون.. يستأهلون هذا الحكم وما هو أكبر منه.

النعمان: وكنَّا مع رسول الله في الحديبية، وشهدْنا الصُّلح الذي كان فتحاً مبيناً، ثم شهدْنا عُمرَة القضاء مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

صادق: وخيبر؟

النعمان: شهدْناها مع رسول الله.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

النعمان: وشاهدْنا سقوط حصون اليهود حصناً بعد حصن، وبسقوط حصون خيبر وحصن فَدَك، تمَّت تصفية اليهوديَّة الآثمة في جزيرة العرب.

صادقة: الحمد لله الذي أراح أهلَ الجزيرة من اليهود الخبثاء.

صادق: ولكنَّهم عادوا إلينا من جديد يا سيِّدي.

النعمان: مَنْ؟ اليهود؟

صادق: أجلْ يا سيِّدي، عادوا سيرتَهم الأولى، فاحتلُّوا فلسطين، ودنَّسوا

الأقصى، وحاولوا إحراقه أكثر من مرَّة، بالتآمر مع الصليبيّين ومع الأنذال المحسوبين على أمتنا العربية، وارتكبوا المجازر، وقتلوا النساء والأطفال، وأطلقوا النَّار على المصلِّين في مسجد خليل الرحمن في مدينة الخليل.. إنهم أوحش من الوحوش يا سيِّدي.

فكزَّ النعمان البطل على أسنانه وهو يزمجر:

«أصحاب الرِّقاب الغليظة.. لا يصلح لهم إلاَّ شَفَرات السيوف».

صادقة: دعْنا الآن منهم يا جدِّي، وحدِّثنا عن سيرتك الجهاديَّة.

النعمان: وشهدتُ وإخوتي وقبيلتي فتح مكة.. كنا ألفاً وثلاثة مقاتلين من مُزَينة، وقد أمّرني رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وكنتُ حاملَ رايتهم.

صادقة: كم كان عدد الجيش في فتح مكَّة يا جدِّي؟

النعمان: حوالي عشرة آلاف مقاتل.. كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد أرسل إلى الأعراب في البادية وحول المدينة، وقال لهم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحضرْ رمضان بالمدينة» فجاءته قبائل: مزينة وغفار وأسلم وجهينة وأشجع وسليم، فتكوّن منهم ومن المهاجرين والأنصار جيش من عشرة آلاف مقاتل.

صادقة (كالمحدِّثة نفسَها): ألف من عشرة آلاف.. عُشْرُ الجيش من مزينة.. هذا رائع يا جدِّي..

النعمان: الحمد لله الذي هدى (مزينة) للإسلام.

صادق: كأنِّي أتذكَّر يا سيِّدي، أن الشاعر كعب بن زهير بن أبي سُلْمى من مزينة؟

النعمان: أجلْ يا بنيّ.. وقد أسرفَ كعبٌ في هجاء الرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم، حتى أهدَر الرسولُ دمه، مع أنَّ أخاه بُجَيْراً كان مسلماً حَسَنَ الإسلام،

وقد لامَ بجيرٌ أخاه كعباً، وذكرَ له تهديدَ النبـيِّ إياه، فخاف كعب، ثمَّ جاء مسلماً مستأمناً خائفاً بعد فتح الطائف، ومدح رسول الله.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

النعمان: بقصيدة رائعة، هي قصيدة (بانت سعاد).

صادق: فرضي عنه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ووهَبَه بُرْدَتَه، وسُمِّيتْ تلك القصيدة بالبُرْدة.

هبَّتْ صادقةُ قائمة وقالت:

ــ أنا أحفظ قصيدة البُرْدة:

بـانـتْ سعـادُ فقلبـي اليـوم مَتْبُـول   مُتَيَّـمٌ إثْـرَهـا لـم يُفْـدَ مكبـولُ

وعندما وصلَ كعبٌ في قصيدته إلى قوله:

إنَّ الـرسـول لسيـفٌ يُستضـاءُ بـه   مهنَّـدٌ مـن سيـوف الله مسلـولُ

خلعَ الرسولُ الكريم عليه بُرْدَتَه. وقد دفع الخليفة معاوية بن أبـي سفيان لكعبٍ فيها عشرةَ آلاف درهم، فلم يبعها. فلما مات كعبٌ، اشتراها معاوية ــ رضي الله عنه ــ من ورثته بثلاثين ألف درهم، ثم توارثها الخلفاء الأمويّون والعباسيّون، حتى وصلتْ إلى السلاطين العثمانيين، وكان الخلفاء يلبسونها في عيد الفطر وفي عيد الأضحى.

النعمان: أحسنتِ يا بنتي يا صادقة، وإن كنتُ لا أعرف أحداً ممن ذكرتِ من الخلفاء سوى معاوية بن أبـي سفيان رضي الله عنه وعن أبيه.

صادق: ثم ماذا يا سيّدي؟

النعمان: وحضرت غزوة الطائف، وسائر الغزوات الأخرى، إلى أن لحق النبـيُّ الكريم بالرفيق الأعلى.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

صادق: هل كنتَ أنت وإخوتك من البكّائين يا سيِّدي؟

النعمان: أجلْ.. أطلق علينا المسلمون هذه الصّفة، ذلك أننا جئنا إلى رسول الله.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

النعمان: نريد القتال في سبيل الله، وتحت لواء رسول الله في غزوة تبوك، ولكنّ الرسول الكريم ردّني وإخوتي، لأنه لا يجد ما يحملنا عليه، فرجعْنا وأعيننا تفيض من الدمع، حزناً ألاَّ نجد ما ننفق على أنفسنا، وألاَّ يجد الرسول ما يحملنا عليه، لأنَّ المسلمين كانوا فقراء، وقد بذل أغنياؤهم بَذْلَ من لا يخشى الفقر، ليجهّزوا ذلك الجيش الذي سُمِّيَ (جيشَ العُسْرة).

صادقة: ولكنك ذكرتَ يا جدِّي المجاهد أنكم شاركتم في غزوة تبوك.

النعمان: هذا صحيح..

صادقة: كيف؟

النعمان: قلت لكم: خرجْنا من عند الرسول ونحن نبكي، لأننا سنُحْرَمُ من القتال مع النبيّ القائد وجيشه، وفيما نحن خارجون من عند رسول الله، لقيَ اثنان منَّا الصحابيَّ الكريم: يامينَ بن عمير بن كعب، فسألهما عمَّا يبكيهما، فأخبراه بما كان من أمرِنا مع النبيّ الكريم، وأننا لا نملك ما نتقوّى به على الخروج، ونحن نكره أن تفوتنا غزوةٌ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وسكت المجاهد النعمان هُنَيْهةً ثم تابع يقول:

ـ فأعطاهما (يامينُ) بعيراً ليركباه، وزوَّدَ كلَّ واحد منهما بصاعين من تمر، كما حَمَلَ العباسُ عمُّ النبيِّ منَّا رجلين، وحَمَلَ ذو النُّورين عثمانُ بنُ عفَّانَ منَّا ثلاثة.

صادقة: وهكذا شاركتم في غزوة تبوك.

صادق: ثمَّ ماذا يا سيِّدي القائد؟

النعمان: تذكرتُ معجزة من معجزات النبـيِّ الكريم.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

النعمان: عندما قدِمْتُ وأربعَ مئة من قبيلتي مزينة إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأعلنّا إسلامنا، أردْنا أن ننصرف من عنده، فقال النبـيُّ الكريم لعمر:

«يا عمر! زَوِّدِ القومَ».

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما عندي إلاَّ شيءٌ من تمرٍ، ما أظنّه يقع من القوم موقعاً.

صادقة: أي لا يكفيهم التمر الذي عندي، فهو قليل، وهم كُثُرٌ.

النعمان: فقال النبـيّ:

«انطلقْ فزوِّدْهم».

فانطلقَ بنا عمر، فأدخلَنا منزلَه، ثم أصعدَنا إلى عُلِّيَّة، فلمَّا دخلْنا، إذا فيها من التمر مثلُ الجمل البكر الأورق، فأخذ القومُ منه حاجتَهم، وكنتُ في آخر مَنْ خَرَجَ، فنظرتُ فما أفقِدُ موضعَ تمرةٍ من مكانها.

صادق: هل تشرح لي معنى هذا الكلام يا سيِّدي؟

صادقة: أنا أشرح له يا جدِّي إذا سمحت.

النعمان: تفضّلي يا بنتي.

صادقة: الجَمَلُ البَكْرُ الأورق: أي الجمل الصغير الأسمر. يعني كان في العُلِّيَّة تمرٌ قليلٌ، حَجْمُه كحجم القاعود ابن الجمل.

صادق: هذه فهمْتُها.

صادقة: جاء جدّي النعمان ومعه أربع مئة مسلم من قبيلته مزينة، وأخذوا حاجَتهم من التمر، فلم ينقص التمرُ تمرةً واحدة.

صادق: الله أكبر.. هذه معجزة هائلة.. أربعُ مئةِ رجل يأخذون ما يحتاجونه من التمر، وهو قليلٌ بحدّ ذاته، ثمَّ لا ينقص منه تمرة؟

هنيئاً لكم ــ يا سيِّدي ــ صُحبتكم للرسول القائد، ومشاهدتكم معجزاته الهائلة.

صادقة: ثمَّ ماذا عندك يا جدِّي؟ لا بدَّ أن عندك الكثير الكثير.

النعمان: بعد أن انتقل الرسول العظيم صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الرفيق الأعلى، ارتدَّتْ أكثر القبائل العربية.

صادق: هكذا بسرعة؟

النعمان: تصوَّروا.. في العام التاسع للهجرة، هُرعتْ وفود تلك القبائل إلى المدينة المنوّرة، تعلنُ إسلامها، وفي العام الحادي عشر، أي بعد عامين من إعلان ولائها وإسلامها، جاءت وفودُها إلى الخليفة الصدِّيق، لتعلن ارتدادها عن الإسلام، أو عن بعض أركان الإسلام، كالتنكّر للزكاة، والامتناع عن دفعها، حتى إنَّ بعض الأعراب تجرَّأ على الله فأعلن نُبُوَّتَهُ.. زعم أنه نبيٌّ، كطليحةَ بنِ خُوَيْلد، ومسيلمةَ الكذَّاب، والأسود العَنْسيّ، بل بلغت الوقاحةُ بسَجَاح أن تعلن أنّها نبيَّة يوحى إليها.

صادقة: وقريش؟

النعمان: قريش وأهل الطائف وأهل المدينة ثبتوا على إسلامهم، وكانوا مع الخليفة الصدِّيق في محاربة المرتدّين..

صادق: هل ارتدت القبائل بكلّيتها؟ ألم يبق فيها مسلمون؟

النعمان: بلى.. بقي بعض أفرادها على الإسلام، وتمسّكوا به.

صادق: هل تعرّض هؤلاء الثابتون على إسلامهم للأذى؟

النعمان: بل تعرّضوا للقتل ومصادرة أموالهم، وسَبْـي نسائهم وذراريهم.

صادقة: أعوذ بالله.

النعمان: فما كان من الخليفة الصِّدِّيق إلاَّ أن يقاتلهم، برغم مخالفة كثير من الصحابة الكرام له.

صادقة: مثلُ مَنْ مثلاً؟

النعمان: مثل الفاروق عمر بن الخطاب مثلاً، ولكنَّ الخليفة الصِّدِّيق صمَّم على قتالهم، وردَّهم إلى الإسلام، والثأر للمسلمين الذين قتلتهم قبائلهم المرتدّة.. وشكّل جيشاً من المسلمين قاده بنفسه، وكنتُ على ميمنة ذلك الجيش، وكان أخي عبد الله بن مقرّن على ميسرته، وقاد أخي سويد بن مقرِّن مؤخرة الجيش، وكان بنو مزينة من الثابتين على الإسلام، المدافعين عنه.. كانوا في جيش الخليفة في مواجهة المرتدّين الذين جمعوا جموعهم، وحاولوا مهاجمة المدينة المنوَّرة.

صادق: تُرى.. ما الذي جرَّأهم على المسلمين يا سيِّدي بهذه السُّرعة؟

النعمان: أولاً: وفاة النبي ـ بأبي هو أميّ ـ كانوا يعتقدون أنَّه مؤيَّد من الله، وقد مات.

ثانياً: اضطراب أحوال المسلمين بعد وفاة النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

ثالثاً: خروج جيش أسامة بن زيد إلى تخوم الشَّام، وفيه خيرة الرجال المقاتلين.

صادق: فاهتبل المرتّدون الفرصة.

النعمان: ولكنَّ الخليفة كان أسبقَ منهم، فقد خرج إليهم بجيشه في آخر الليل، حتى لا ينكشف أمره، ولا تتسرَّب أخباره إلى تلك الجموع من قبيلتي عبس

وذبيان ومن لحق بهما من مرتدّي بعض القبائل الأخرى. . سرْنا باتجاه عدوّنا شمالاً، فبلغْنا مرابطهم مع الفجر، وهم لا يدرون عنَّا شيئاً، حتى كانت السيوف في رقابهم، فقُتلَ منهم مَنْ قُتِلَ، وولَّى الناجون الأدبار، وانتهت المعركة قبل أن تشرق الشمس، وقد قتلْنا قائدهم: حبال بن خويلد، شقيق طليحة المتنبِّيء.

وسكت النعمان لحظة ثم تابع يقول:

ــ هزمْنا المرتدّين في لمحةٍ عاجلة، وطاردْناهم، حتى نزل الخليفة بذي القصَّة، فتركني فيها على رأس الجند، وعاد إلى المدينة.

أبديتُ إعجابـي بعبقرية الخليفة الصدِّيق، وصحَّحتُ نظرتي إليه، فما كنت أحسبه مقاتلاً. . كنت أظنه رجلاً وديعاً مُخْبِتاً إلى الله، يُؤْثِرُ السِّلْمَ والسَّلامة على القتال والقتل، إذ لا شأن له بأمور القتال. . حدَّثنا القائد النعمان عن عبقرية أبـي بكر رضي الله عنه، وعن إيمانه الذي لا تهزّه العواصف الهُوْج.

فقالت صادقة في تأكيد:

ــ لولا صمود الصدِّيق في وجه المرتدين، ولولا مبادرته لقتالهم، ولو أنّه رضي بأنصاف الحلول التي رضي بها كثير من أصحاب رسول الله، لتغيَّر مجرى التاريخ. وقال سيِّدي النعمان:

ــ رجع جيش أسامة بن زيد إلى المدينة، وفرح المسلمون بعودته سالماً غانماً، وقرَّر الخليفة أن يستريح أسامة وجيشه في المدينة، وأمَّره على مَنْ بقي في المدينة، ثمَّ خرج بمن تجمَّع لديه من مقاتلة المسلمين ليحارب المرتدِّين الذين بدؤوا يتحشّدون.

فاستغربتْ صادقة أن يترك المسلمون أميرهم يخرج للقتال، وهو في تلك السنّ، وعليه أعباء الخلافة، فقال النعمان:

ــ الحقّ أنّ المسلمين لم يكونوا راضين عن خروج الخليفة بنفسه، وقالوا

له: «ننشدك الله، يا خليفة رسول الله، أنْ تعرِّض نفسك للخطر، فإنك إنْ تُصَبْ لم يكن للناس نظام، ومقامُك أشدُّ على العدوّ من خروجك، فابعثْ إليهم، رجلاً يكفيكهم، فإن أصيبَ أمَّرْتَ آخر».

ـ وهل قَبِلَ الخليفةُ بهذا يا جدِّي؟

أجاب النعمان:

ـ لا.. لم يقبل.. وقال لهم في تصميم:

«لا والله لا أفعل، ولأواسينّكم بنفسي».

فهتفتُ من أعماقي:

ـ الله أكبر.. لقد ضرب الخليفة لهم أروع مثلٍ بخروجه هذا.

وتابع الصحابيُّ الجليل يقول:

ـ فخرج الصدِّيق في تعبيته التي كان عليها..

فقلت: أي كنتَ أنت يا سيِّدي على ميمنة الجيش، وكان أخوك عبد الله على ميسرة الجيش، وكان أخوك سويد على مؤخّرة الجيش.

النعمان: أجلْ يا صادق.. وسرْنا وسار بنا الخليفة الصِّدِّيق حتى نزلْنا على أهل الرَّبَذة بالأبرق، وكانوا من المرتدِّين القريبين من المدينة من قبيلتي عبس وذبيان، فهزمْناهم، وأسرْنا الشاعر الحطيئة.

صادقة: هل كان الحطيئة من المرتدّين يا جدِّي؟

صادق: قال لنا أستاذ الأدب العربي: الشاعر الحطيئة كان شاعراً فحلاً ضخماً من الطبقة الثانية بين شعراء الجاهلية، ولكنَّه كان مغموزاً في نسبه، كما هو مغموز في عقيدته.

النعمان (مقاطعاً): دعوكم من الحطيئة، فقد أفضى الرَّجل إلى ما قدَّم.. ولنعدْ إلى سيرة الصِّدِّيق العظيم.

صادقة: وشتَّان ما بين الرجلين.. هاتِ يا جدِّي هاتِ من سيرة الأجداد الأماجد.

النعمان: ثم عقد الخليفة أحدَ عشرَ لواءً لمقاتلة المرتدّين والقضاء على الرّدّة.. وكنتُ في جُنْد البطل الهائل خالد بن الوليد.

صادق: هنيئاً لك يا سيِّدي وجودك مع سيف الله خالد، الخالد البطولة والذِّكر.

صادقة: كما كان عدد جيشكم يا جدِّي؟

النعمان: كنا أربعة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار ومن مزينة ومن بعض القبائل الأخرى.. وهذه هي المرَّة الثانية التي أقاتل فيها تحت لواء خالد.

صادقة: والمرَّة الأولى يا جدِّي؟

النعمان: كانت في فتح مكة المكرَّمة.. وقد لازمتُ خالداً حتى كسرْنا شوكة المرتدّين، وقضينا على الرِّدَّة قضاء مُبْرَماً..

صادق: وبعد القضاء على فتنة الرِّدَّة يا سيِّدي؟

النعمان: بعدها توجَّهتُ وأكثر إخوتي مع خالد إلى العراق.. قاتلْنا تحت رايته، وحقَّقنا انتصارات كبيرة على الفرس، وعلى من تعاون معهم من الأعراب ومن متنصِّرة العرب، وأفدْنا الكثير من عبقريّته الفذة في الإدارة والتنظيم، كما أفدْنا من شجاعته الرائعة، ومن إقدامه النادر الذي لا يخطر الموت على ذهن صاحبه.

صادق: الحقّ، يا سيِّدي، إنَّ سيف الله خالداً عبقريَّةٌ عسكرية لا مثيل لها.. (وخشيتُ أن أكون قد أسأتُ بهذا الكلام أمام قائد عسكريّ عظيم أيضاً، هو النعمان بن مقرِّن، فاستدركتُ وسألته:)

أليس كذلك يا سيِّدي القائد المجاهد الشهيد؟

فابتسم القائد النعمان ابتسامة عذبة وقال:

ــ كلامك صحيح يا صادق، وأنا أكاد لا أجد من يماثله في عبقريّته العسكرية الفذّة، سوى القائد البطل: المثنّى بن حارثة الشَّيباني.

وقالت صادقة:

ــ هنيئاً لكم ــ يا جدِّي العظيم ــ صحبتكم للبطل الخالد، وجهادكم تحت لوائه.

ولحظْتُ سحابة من حزن تغطّي الوجه السمح الوسيم، ثمَّ قال بعد أن تأوّه:

ــ ولكنَّ ابن الوليد، السيف البتَّار الذي حقَّق انتصارات هائلة في العراق، فرحْنا بها، واستبشرنا بفتح بلاد فارس على يديه المباركتين. ما لبث خالد أن تركنا مع نصف الجيش في العراق، بقيادة المثنَّى البطل الذي لا يُشَقُّ له غبار، وقاد النصف الآخر إلى بلاد الشام، لنجدة جيش المسلمين، هناك، الذي يقف في مواجهة جيش بل جيوش جرّارة للروم.

ــ وبقيتَ وإخوتك، يا سيِّدي، في العراق؟

ــ أجلْ يا صادق. . بقينا في العراق، وحزنتُ حزناً شديداً على فراق خالد، لم أملك معه دموعي، فقد كان للقتال معه مذاقٌ لم أشعر به إلاَّ مع المثنَّى بن حارثة. . هذا البطل الذي أعدُّه من نوادر القادة الأفذاذ الذين قلَّما يجود الزمان بأمثالهم.

صادقة: وقاتلتَ وإخوتك ــ يا جدّي ــ تحت لوائه؟

النعمان: وأفدْنا منه فوائد عظيمة، لا تقلّ عن تلك التي أفدْناها من القائد البطل: خالد بن الوليد.

صادق: وهكذا تخرّجتم ــ يا سيِّدي ــ في مدرسة محمَّد وتلاميذه النجباء: أبـي بكر، وخالد، والمثنَّى.

النعمان: والحمد لله.. أفدْنا من خالد والمثنَّى سرعةَ الحركة، وأساليبَ التعبية، وأسلوب المفاجأة، وكيفيَّة حشد القوَّات، والمرونة في اختيار الأسلوب المناسب لكلٍّ معركة، واستثمار النصر في كل موقعة.. الحقيقة.. استفدتُ أنا شخصيّاً الكثير من هذين القائدين الملهمَين: خالد والمثنَّى.

صادقة: يبدو لي ـ يا جدّي القائد المتواضع ـ أنَّ الباحثين عندنا مقصِّرون في دراسة المثنَّى البطل.

صادق: ثمَّ ماذا يا سيِّدي القائد؟

النعمان: وقاتلتُ وإخوتي تحت لواء الرجل الصالح، القائد سعد بن أبـي وقَّاص في القادسيَّة.

صادق: معركة القادسيَّة من المعارك التاريخيَّة الحاسمة في التاريخ، فهل تحدِّثُنا عنها شيئاً ما يا سيِّدي المجاهد؟

النعمان: نزل سعد بن أبـي وقَّاص في القادسية، وأقام فيها أكثر من شهرين، إلى أنْ أظفرَه اللَّهُ بعدوِّه.

صادقة: هل نزل جدِّي سعد بعد جدِّي العظيم خالد بقليل يا جدِّي؟

صادق: أو.. كم مرَّ من الزمن بين نزول سعد ونزول خالد في العراق يا سيِّدي؟

النعمان: حوالي سنتين.. أكثر من سنتين بقليل.

صادق: نعمْ يا سيِّدي!.

النعمان: جاءت الأخبار إلى سعد بالحشود الفارسيَّة التي أمر بها الملك يزدجرد، وكان على رأسها القائد الفارسيّ المشهور رستم، فكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بها، ويطلب رأيه فيما يفعل، فكتب إليه أمير المؤمنين:

«لا يُكْرِبَنَّكَ ما يأتيك عنهم، واستعنْ بالله وتوكّلْ عليه، وابعثْ إليه رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه؛ فإنَّ الله جاعلٌ دعاءهم توهيناً لهم».

صادقة: فأرسلك سعدٌ يا جدِّي؟

النعمان: بل كنتُ على رأس وفدٍ من خيرة من كان في معسكر المسلمين.. ذهبْنا إلى يزدجرد الملك، وتجاهلْنا قائد جيشه رستم.. استأذنّا على يزدجرد، فلم يأذن لنا من فوره، بل تأخّر قليلاً، حتى جمع من وزراءه واستشارهم، ثمّ أذنَ لنا بالدّخول، وأمر ترجمانه فقال لنا:

«ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا، والولوع ببلادنا؟

أمنْ أجل أنّا تشاغلنا عنكم، اجترأتم علينا؟».

فقلت لأصحابي من الوفد:

«إنْ شئتم تكلَّمتُ عنكم، ومن شاء آثرْتُه».

صادقة: فقالوا: بل تكلَّمْ.

النعمان (متعجِّباً): ومن أدراكِ بما قالوه يا صادقة؟

صادقة (مبتسماً): أدراني عقلي.. فأنت أمير الوفد، وأنت الرجل الصالح، والقائد المجاهد.

النعمان (مقاطعاً): كفِّي عن هذا يا ابنتي، ودعيني أكملْ.

صادقة: تفضَّلْ يا جدِّي الزاهد.

النعمان: فقلت للترجمان: قل لسيِّدك الملك:

«إنَّ الله رحمَنا، فأرسلَ إلينا رسولاً يأمرُنا بالخير، وينهانا عن الشرِّ، ووعدَنا على إجابتِه خيرَ الدُّنيا والآخرة، فلم يدعُ قبيلةَ إلاَّ وقارَبَه منها فرقة، وتباعَد عنه بها فرقة، ثم أُمِرَ أنْ ينبذَ إلى مَنْ خالفَه من العرب، فبدأ بهم، فدخلوا- معه على

وجهين: مُكْرَهٍ عليه فاغتبط، وطائعٍ أتاه فازداد، فعَرَفْنا جميعاً فضْلَ ما جاء به، على الذي كنَّا عليه من العداوة والضِّيق، ثمَّ أمرَنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوَهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دينٌ حسَّنَ الحَسَن، وقبَّحَ القبيحَ كلَّه. فإنْ أبيتم، فأمرٌ من الشرّ هو أهْوَنُ من آخَرَ شرّ منه: الجزية. فإنْ أبيتم فالمناجزة، فإن أجبْتم إلى ديننا، خلَّفْنا فيكم كتابَ الله، وأقمْنا، على أن تَحْكُمُوْا بأحكامه، ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء (أي الجزية) قبلْنا ومَنَعْناكم، وإلاَّ، قاتلْناكم».

صادقة: هل كنتم تتركونهم وشأنهم وبلادهم، لو أنَّهم أعلنوا إسلامهم يا جدِّي؟

النعمان: طبعاً نتركهم يا صادقة، ويكونون إخواننا في الدين، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فنحن لم نكن غزاة، بل كنَّا دعاةً إلى الله، نريد أن نخرج الناسَ من عبادة العباد من الملوك والطواغيت، إلى عبادة الله الواحد الأحد.

صادق: بماذا أجابكم يَزْدَجِرْدُ يا سيِّدي؟

النعمان: قال يزدجرد:

«إني لا أعلم في الأرض أمَّةً كانت أشقى ولا أقلَّ عدداً، ولا أسوأَ ذاتَ بيْنٍ منكم، وقد كنّا نوكِّل بكم قُرى الضَّواحي فيكفوننا أمركم، فلا تطمعوا أن تقوموا لفارس (أي للفُرْس) فإن كان غررٌ لحِقَكم، فلا يَغُرَّنَّكم منَّا، وإن كان الجهد (أي الفقر) فَرَضْنا لكم قُوْتاً إلى خِصْبكم، وأكرمْنا وجوهَكم (أي رؤساءكم) وكَسَوْناكم، وَمَلَّكْنا عليكم ملكاً يرفقُ بكم».

صادقة: أنتم في وادٍ، ويزدجردُ في وادٍ آخرَ يا جدِّي.

النعمان: فقام البطل المغيرة فقال:

«أيُّها الملك!. إنَّ هؤلاء رؤوس العرب ووجُوههم، وهم أشرافٌ يستحيون من الأشراف، وإنَّما يُكْرِمُ الأشرافَ ويعظِّمُ حقَّهم الأشرافُ، وليس كلُّ ما أُرسلوا به

قالوه، ولا كلُّ ما تكلَّمْتَ به أجابوك عليه، فجاوبْني لأكونَ الذي أبلِّغُك وهم يشهدون على ذلك لي. .

فأمَّا ما ذكرْتَ من سوء الحال، فهي على ما وَصَفْتَ وأشدّ. . ».

ثمَّ ذكرَ المغيرةُ من سوء عيش العرب، وإرسالِ اللَّهِ النبـيَّ.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

النعمان: إليهم، ثم قال له:

«اخترْ ــ إن شئتَ ــ الجزيةَ عن يدٍ وأنتَ صاغِرٌ، وإن شئتَ فالسيف، أو تُسْلِم فتُنْجي نفسَك».

صادق: الله أكبر. . هذا هو استعلاء الإيمان على الأصنام البشريَّة.

النعمان: فقال يزدجرد، والغضبُ يأكل أعصابَه، فيتطاير شَرَرُه من عينيه ولسانه:

«لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لقتلْتُكم! . لا شيء لكم عندي».

ثم طلب يزدجرد حِمْلاً من تراب، فجيء به، فقال لهم:

«احملوه على أشرف هؤلاء، ثمَّ سوقوه حتى يخرج من باب المدائن».

ثمَّ التفت إلينا وزمجرَ غاضباً:

«ارجعوا إلى صاحبكم، فأعلموه أنِّي مرسلٌ إليه رستم، حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسيَّة، ثم أُورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم، بأشدَّ ممَّا نالكم من سابور».

صادقة: هل أخافكم تهديدُه يا جدِّي؟

النعمان: بل فرحْنا به، وقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب وهو يقول:

«أنا أشرفهم. . أنا سيِّد هؤلاء».

صادق: كيف يقول عاصمٌ هذا يا سيِّدي؟

النعمان: ليحمل التراب عنَّا يا صادق، ثمَّ إنَّ عاصماً سيِّدٌ وبطلٌ مغوار.. خرج إلى راحلته فركبها، وطار بالتراب إلى سعدٍ وقال له:

«أبشرْ، يا سعدُ فوالله لقد أعطانا الله أقاليدَ مُلْكِهم!».

صادقة: وكذلك كانَ والحمد لله.

النعمان: الحمد لله.. عَرَضْنا عليه الإسلامَ فأبـى، وعَرَضْنا عليه الجزية فرفضها واختار الحرب، فحاربْناه، وانتصْرنا على جيشه العَرَمْرَم، وقتلْنا قائدَه رستم، ومزَّقْنا جيشَه الذي كان أضعافَ جيشِنا شرَّ ممزَّق، وقتلْنا منهم مقتلةً عظيمة، وغنمْنا منهم مغانمَ كثيرة، وكنتُ البشيرَ لأمير المؤمنين بهذا النَّصر.

صادق: الله أكبر.. سلمتْ أيديكم من مقاتلين أبرار أبطال.

صادقة: وبعد هزيمة الفرس في القادسيَّة يا جدِّي؟

النعمان: فتحتْ لنا عاصمةُ كسرى أبوابَها، ففتحْنا (المدائن) وشاهدتُ القصر الأبيض الذي وصفه لنا الرسول القائد، وهو يحفر الخندق، ويحطِّم الصَّخرة التي اعترضتْ طريقنا ونحن نحفر، وتذكَّرْتُ البُشْرَياتِ التي بَشَّرَنا بها النبـيُّ العظيم ونحن نعاني ما نعاني في غزوة الأحزاب، وما كان لتلك البُشْرَياتِ أنْ تغيب عن أذهاننا لحظةً من زمن.

فاستعبرتْ أختي صادقة، ثمَّ مسحتْ دموعَها وهي تقول:

ـ ويلٌ للكافرين.. ويلٌ للمشركين.. رسولُ الله بينهم، ومعجزاته الخارقة أمام أبصارهم، ومع ذلك يكابرون ويبقَوْنَ على كفرهم وشركهم!.

وسألتُ سيِّدي النعمان عن مصير يزدجرد الملك فقال:

ـ فرَّ يزدجرد بكنوزه ونسائه وحرسه، وصار يتنقَّل من بلد إلى بلد، وكان يحرِّض الفُرْسَ على قتال المسلمين، حتى استقرَّ في مدينة (مرو)، وأثمرت جهوده

في تحشيد قوات كثيفة من أهل فارس والأهواز، وانتهى خبر تلك الحشود إلى أمير المؤمنين عمر، فكتبَ إلى سعد:

«أنِ ابعثْ إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرِّن، وعجِّلْ، فلينزلوا بإزاء الهرمزان، ويتحقَّقوا أمرَه» كما كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ بمثل هذا، فخرجْتُ في أهل الكوفة، وسرتُ إلى الأهواز على البغال، وأرحْتُ الخيل، فلمَّا سمع الهرمزان بمسيري إليه، ظنَّ أنَّه يستطيع هزيمتي وهزيمةَ مَنْ معي، فبادرَ إلينا مُسْرعاً، والتقيْنا بأرْبُك، واقتتلْنا قتالاً شديداً، ومَنَّ اللَّهُ علينا بالنصر، وانهزم الهرمزان إلى (تُسْتَر) وترك (رامهرمز) فسرتُ إليها، وفتحتُها، ثم سرتُ إلى (إيزَج) فصالحني صاحبُها (تيروَيْه) فرجعت إلى (رامهرمز) وأقمتُ فيها، ثمَّ سرتُ مع القوّات التي وصلتْ من البصرة إلى (تُسْتر) وفيها الهرمزان، وقد تخندق جنوده من أهل فارس والجبال والأهواز في الخنادق، فحاصرْناهم، وأكثرْنا فيهم القتل، وكان فينا أبطال عظام، وتمكَّنَّا من هزيمتهم، حتى أدخلناهم خنادقهم، ثمَّ اقتحمناها عليهم، فدخلوا مدينتهم، فأحطْنا بها، وحاصرْناهم فيها.

صادق: وهل طال الحصار؟

النعمان: بضعة أشهر، وكان فتحُ المدينة من بركات الصالحين.

صادقة: كيف؟

النعمان: كان البَرَاء بن مالك في الجيش. والبراءُ هذا بطلٌ صنديد.. تصوَّروا أنَّه بارز المجوس مئة مبارزة، وقتل كلَّ من بارزه.

صادق: الله أكبر.. يعني قتلَ مئةَ مبارزٍ بطلٍ يا سيِّدي؟

النعمان: هذا عدا مَنْ قتله أثناء الالتحام.

صادق: هل اقتتلتم قتالاً مباشراً؟

النعمان: أجلْ.. فقد زاحفونا ثمانين زحفاً، وكانت المعارك بيننا سجالاً..

مرَّةً لنا، ومرَّة علينا، فلمَّا كان آخرُ زحفٍ منها، واشتدَّ القتال، طلبْنا من البراء البطل أن يدعوَ لنا بالنَّصر، فقد كان البراءُ مجابَ الدَّعوة.

صادقة: وهل دعا البراء؟

النعمان: أجلْ.. رفع يديه ودعا: «أقسمْتُ عليك يا ربّ لمّا منحْتَنا أكتافَهم وألحقْتَني بنبيِّك» «اللهمَّ اهزمْهم لنا واستشهدْني».

فانهزم المجوس إلى خنادقهم، ثم إلى مدينتهم، فأحطْنا بهم.

صادقة: الله أكبر.. ما هذا الرجل؟ بطلٌ ووليٌّ مُكَرَّمٌ من أولياء الله؟

النعمان: ألم تسمعي يا صادقة حديثَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فيه؟

صادقة: لا.. لم أسمعْه يا جدِّي.

النعمان: إذن.. فاسمعيه.

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

«رُبَّ ذي طِمْرين (أيْ رُبَّ صاحب ثوبين باليين) لا يُؤْبَهُ له، لو أقسمَ على الله لأبرَّه، منهم البراءُ بن مالك».

صادقة: رضي الله عنه وأرضاه.

صادق: هل تذكُرُ لنا ــ يا سيِّدي ــ شيئاً من بطولات البراء؟

النعمان: في الحرب الضَّروس التي خُضْناها تحت لواء سيف الله خالد في اليمامة؟

صادقة: في حربكم مع المرتدِّين.

النعمان: مع مُسَيْلِمَةَ الكذاب الذي لجأ بجيشه إلى الحديقة، رمى البراءُ بنفسه على المرتدِّين، وقاتلهم ــ وحدَه ــ حتى فتح باب الحديقة للمسلمين، وفيه بضع وثمانون جراحة، ما بين رميةٍ بسهم، أو ضربة بسيف.. فهتفْنا أنا وصادقة:

ـ الله أكبر. . الله أكبر.

وتابع النعمان يقول:

ـ فحُمِلَ البراءُ إلى رَحْلِه ليداوَىٰ، وأقام عليه خالدٌ شهراً يداوي له جراحه.

وسكتَ النعمان المجاهد لحظةً أدارَ فينا عينيه ليرى مدى تأثير هذه البطولة علينا، فرأى مآقيَنا تفيض بالدَّمْع، فقال:

ـ واسمعوا هذه عن البراء البطل:

بينما كان البراء بن مالك وأخوه أنس بن مالك. .

إذن. . البراء أخو أنس يا سيِّدي؟

ـ نعمْ يا صادق. . أخَوان صالحان. . هل أتابع؟

ـ معذرةً يا سيِّدي. . تفضَّلْ.

قال النعمان:

ـ بينما كان البراءُ وأنسٌ عند حصنٍ من حصون العدوِّ في الحريق ـ العراق ـ وكان المجوس يُلْقون كلاليبَ في سلاسلَ محمَّاة (الكلاليب جمع كلّوب، وهو الحديدة المعوجَّة الرأس) فتَعْلَقُ بالإنسان، فيرفعونه إليهم، ففعلوا ذلك بأنس، فأقبلَ البراء حتى تراءى في الجدار، ثم قبض بيده على السلسلة، فما برحَ حتى قطعَ الحبلَ الحديديَّ، ثمَّ نظر إلى يده، فإذا عظامُها تلوح، قد ذهب ما عليها من اللَّحم.

فهتفْنا أنا وصادقة، وعلتْ هتافاتنا، وانهمرتْ دموع الفرح والإعجاب على خدودنا، ثم سألتْ صادقةُ بصوتٍ متهدِّج:

ـ وهل نجا أنس يا جدِّي؟

فطمأنها النعمان وقال:

ـ لقد نجا أنس، وكانت يد البراء تدخِّنان برائحة شواء لم نشمَّ مثلَه من قبلُ ومن بعدُ، كما لم نرَ مثلَ دُخَانه.

وسألتُ سيِّدي النعمان عن فتح (تُسْتَر) وكيف كان؟ فقال:

ـ قلت لكم طال حصارنا لـ (تُسْتَر) وطالتْ حربُنا معهم.. وذات يوم، خرج إليَّ رجلٌ منهم، وطلبَ الأمان، على أن يدلّني على مدخل ندخل منه، ورمى رجلٌ آخرُ ناحية أبـي موسى بسهم فيه رقُّ غزالٍ مكتوبٌ فيه:

«إنْ أمَّنتموني دللتكم على مكان تأتون المدينة منه».

فأمَّنوه كما أمَّنْتُ صاحبـي.

ـ كيف؟ أنت أمَّنْتَه وجهاً لوجه، فكيف أمَّنَه القائد أبو موسى يا سيِّدي؟

ـ بنشّابة.. فرمى إليهم بأخرى جاء فيها:

«انْهَدُوا من قِبَلِ مَخْرَجِ الماء، فإنكم تقتحمونها».

فندبْتُ مَنْ معي إلى ذلك المكان، وندبَ أبو موسى من معه، ونَهَدْنا جميعاً إلى ذلك المكان في الليل، ودخل منّا بشرٌ كثير في ذلك السِّرب، فلمّا دخلْنا المدينة كبَّرْنا فيها، وكبَّرَ المسلمون من وراء الأسوار في الخارج، وفُتحت الأبواب، واقتتلْنا قتالاً شديداً حتى قتلْنا كلَّ مقاتل، وقصدَ الهرمزانِ القلعةَ، وتحصَّنَ بها، وحاصره المسلمون، ثمَّ نزل الهرمزان على حُكم أمير المؤمنين عمر، فقبلْنا، وأوثقْناه، وأرسلناه إلى أمير المؤمنين.

سألتْ صادقةُ عن البراء، ما فعلَ اللَّهُ به؟ فقال النعمان:

ـ ألم أقلْ لكم: إنه أقسم على الله أن يمنحنا أكتافَ العدوّ، وأن يمنحه الشهادةَ ليلحق بالنبـيِّ الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم؟

ـ واستجاب اللَّهُ دعاءه؟

فقال النعمان في استغراب:

ـ ألم أقل لكم: إنَّ البراء كان مستجابَ الدَّعوة، وأنه لو أقسم على الله لأَبَرَّه؟ وقد أقسمَ على الله فأبرَّه.

فقلتُ وصادقة: رحمه الله رحمةً واسعة.

ثم قلت:

ــ ثم ماذا يا سيِّدي المجاهد؟

فقال النعمان في نشاطٍ ظاهر:

ــ خرجتُ في عدد من الفرسان لمطاردة المنهزمين إلى مدينة (سُوس) وحاصرتُ المدينة، وشدَّدت عليها الحصار، وآليتُ ألاَّ أغادرها إلاَّ بعد أن أفتحها، فقد غاظني القسسُ والرُّهْبانُ الذين اعتلَوْا أسوارَ (سوس) وصاحوا بنا:

«يا معشر العرب. لا تُعْنَوْا بحصارنا، فإنه لا يفتحها إلاَّ الدَّجَّالُ، أو قومٌ معهم الدَّجَّال».

وتنهَّد النعمان ثم تابع يقول:

ــ كان لا بدَّ من الانتهاء من فتح (سوس) قبل أن يستفحل خطرُ الحشود في (نهاوند) ونضطّر إلى تفريق قوّاتنا، فقد جاءتنا الأخبار بأن حشوداً كثيفة تحتشد إلى الشمال في (نهاوند).. وجاءنا أمرُ الخليفة عمر بأن نتحرك باتجاه (نهاوند).

ــ وماذا فعلتم يا سيِّدي؟

أجاب النُّعمان في فرحٍ ظاهر:

ــ كان على خيلي بطل مغوار اسمه: صافي بن صيّاد، فأتى صافي بابَ السُّوس فدقّه برجله وهو غضبان، وصاح فيه: انفتحْ.

فتقطَّعت السَّلاسل، وتكسَّرت الأغلاق، وتفتَّحت الأبواب، ودخل المسلمون، فطلب المشركون الصُّلح، فأجبْتُهم إليه، وصالحتُهم، وسرتُ إلى نهاوند، حَسْبَ أوامر الخليفة عمر، كما ذكرتُ قبل قليل.

ــ كيف؟

كتب إليّ أمير المؤمنين يقول:

«سلامٌ عليك. . فإني أحمد إليك اللَّهَ الذي لا إلَه إلاَّ هو، أمَّا بعدُ:

فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند. فإذا أتاك كتابـي هذا، فسِرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا تُوْطِئْهم وَعْراً، فتُؤْذيَهم، ولا تمنعْهم حقَّهم فتكْفُرَهم، ولا تُدْخِلَنَّهم غَيْضَةً، فإنَّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مئة ألف دينار، واستنصر اللَّهَ، وأكثرْ من قول: لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، والسلام عليك».

صادقة: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليّ العظيم.

صادق: وصلْنا إلى مربط الفرس يا سيِّدي. . نريد أن تحدِّثنا عن فتح الفتوح، كما أطلق المؤرِّخون على معركة نهاوند، وانتصاركم العظيم فيها.

النعمان: هي كما وصفَها المسلمون والمؤرِّخون كما تقول. . فقد كانت معركة هائلة، رجوتُ أن تفتح لنا أبواب فارس كلّها.

صادق: وكذلك كان سيِّدي. . وإن شئتَ حدَّثْتُك عمَّا جرى بعد سقوطها في أيدي المسلمين.

النعمان: لا يا صادق. . لا يا ابني. . إنها لم تسقط. . إنها فتحتْ ذراعيها لاحتضان الإسلام والمسلمين. . كلمة السُّقوط لا تليق.

صادق: ولكنَّ الكُتَّاب عندنا يقولون: سقطت المدينة. . سقط القائد شهيداً، وما شابه ذلك.

النعمان: هؤلاء الكتّاب الذين تتحدَّث عنهم جَهَلَةٌ، يجهلون لغة العرب، وأساليب اللغة العربية. . الشَّهيد يرتفع ويعلو ويتسامىٰ ولا يسقط، والمدينة التي يفتحها المسلمون لا تسقط عندما تدخل في الإسلام، وتصير مدينة مسلمة، وبلاد فارس التي فتحها أجدادُكم المسلمون لم تسقط، بل علتْ وارتفعتْ بالإسلام، بدين التوحيد.

صادق: معذرةً يا سيِّدي، وشكراً لك، على هذا التنبيه المهمّ.

صادقة: نعود ــ إذن ــ إلى فتح الفتوح يا جدِّي.

النعمان: سأوجز لكم مجريات المعركة إيجازاً غيرَ مُخِلٍّ إن شاء الله، لأن معركة نهاوند فتح الفتوح كما تقولون، فهي من أهمِّ معاركِ الفتح الإسلاميّ، ومن أهولِها؛ فقد جمع فيها ولها كسرى الفرس: يزد جرد، جموعاً هائلة، بلغتْ مئة وخمسين ألفَ مقاتل، وانتهى خبرُ تلك الحشود إلى أمير المؤمنين عمر.

صادق: هل أنت أخبرْتَه يا سيِّدي؟

النعمان: لا.. سعد بن أبي وقّاص هو الذي كتب إليه بشأنها قبل أن يُعْزَل.

صادق: من عزله؟ من عزل سعداً يا سيِّدي؟

النعمان: أمير المؤمنين عمر.

صادقة: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

صادق: هل غلط القائد سعد؟ هل ارتكب إثماً أو جريمة حتى يعزله عمر؟

النعمان: تأدَّبْ يا بني؛ فالقائد سعدٌ فوق الشبهات، وحاشاه من ارتكاب الإثم أو الجريمة.

صادق: إذن لماذا عزله؟

النعمان: الحديث في هذا يطول.

صادق: يعني.. كما عزلَ سيفَ الله خالداً!

النعمان: تأدّب يا ولدي يا صادق، فأمير المؤمنين أتقى لله ممَّا تظنَّ، وأمير المؤمنين أحرصُ الناس على مصلحة المسلمين وعلى نشر الإسلام.

صادق: إذن.. لماذا عزله؟

النعمان: ليكفَّ ألسنة السُّوء عنه.. ليقطعَ دابرَ الفتنة التي كان يتولَّى كِبْرَها

بعضُ.. على أي حال.. دعونا الآن من هذا الحديث، وإذا أحببْتم أن نعود إليه بعد الحديث عن معركة نهاوند، فأنا مستعدّ..

صادقة: نعود يا جدِّي إلى نهاوند.

النعمان: إذن.. كان سعدٌ قد كتبَ إلى أمير المؤمنين عن تلك الحشود قبل أن يُعزَل، وبعد عزله وعودته إلى المدينة، أفاض في الحديث عن خطر تلك الحشود، وعن خطر توحيد كلمة الفئات المتنازعة في فارس، بعد أن طاف بها يزدجرد، وحذَّرها وأنذرها من خطر المسلمين، وأنَّ مصيرهم سيكون كمصير الهرمزان ورستم أذا هم استمرُّوا في خلافاتهم.

فكتبَ أمير المؤمنين إليَّ وإلى أبي موسى وإلى غيرنا، وحَشَدَ لي الحشود، وفكَّرَ عمرُ بالسَّير على رأس الجيش الإسلاميّ لمواجهة يزدجرد وجيشه، ولكنَّ مستشاريه، وخاصَّةً عليَّ بن أبي طالب، أشاروا عليه بغير ذلك، ومنعوه من المخاطرة بنفسه، ورأوا أن يولِّي على الناس رجلاً موثوقاً يقودهم.

صادق: لماذا لم يُعِدْ سعداً يا سيِّدي؟

أعرضَ القائد النعمان عنِّي، ولم يُجْبني، فاعتذْرتُ عن إساءة الأدب، فتابع النعمان المتواضع الوديع يقول لأختي صادقة:

ـ هل نتابع الحديث عن نهاوند يا ابنتي؟

فقالت صادقة:

ـ أجلْ يا جدِّي، ولكنِّي أريد أن أعرف رأي الإمام عليّ كرَّم الله وجهه.

النعمان: كما تحبِّين يا صادقة..

كان كلام ابن أبي طالب ردّاً على الآراء التي سبقتْه، وكانت كلمتُه كلمة الفصل، وكان رأيُه الذي أدلى به بصدق الناصح الأمين المقدِّر للأمور في قوله:

«وإنَّك ـــ يا أمير المؤمنين ـــ إن شخصْتَ من هذه الأرض، انتقضتْ عليك العربُ من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدعُ وراءك أهمَّ إليك ممّا بين يديك من العورات والغيالات . . ».

وقال له عليّ: «إنَّ الأعاجم، إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير المؤمنين، أميرُ العرب وأصلُها، فكان ذلك أشدَّ لكَلَبِهم عليك.

وأمَّا ما ذكرْتَ من مسير القوم، فإنَّ الله هو أكرَهُ لمسيرهم منك، وهو أقدرُ على تغيير ما يكره. وأمّا عددُهم، فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكنْ بالنصر».

صادق: الله أكبر . . هذا هو الرأي الصَّحيح السليم.

النعمان: وكذلك قال أمير المؤمنين.

صادقة: ماذا قال أمير المؤمنين يا جدِّي؟

النعمان: قال عمر: «هذا هو الرأي . . كنتُ أحبُّ أن أتابعَ عليه، فأشيروا عليَّ برجلٍ أولِّيه، وليكن عراقيّاً».

صادق: بمن أشاروا عليه يا سيِّدي؟

صادقة: لا بدَّ أنَّهم أشاروا عليه أن يؤمِّرك لتكون القائد يا جدِّي.

النعمان: بل قالوا له: أنتَ أعلمُ بجندك، وقد وفدوا عليك.

صادق: إذن؟

النعمان: فقال عمر: «والله لأولِّيَنَّ أمرهم رجلاً يكون أوَّلَ الأسنَّة إذا لقيَها غداً».

صادق: يعني؟

النعمان: فسألوه: من هو يا أمير المؤمنين؟

فقال: عمر: هو النعمان بن مقرِّن المزني.

صادقة: فقالوا: هو لها.

النعمان: ومن أدراكِ يا صادقة؟

صادقة: هداني إلى هذا عقلي وقلبـي.

النعمان: بارك الله فيكِ وفي أخيكِ يا صادقة، فكذلك كان.. وقد ذكرتُ لكم كتابَ أمير المؤمنين إليّ قبل قليل.

صادق: ثمَّ ماذا يا سيِّدي؟

النعمان: ثم كتب أمير المؤمنين يستنفر الناس معي، ويأمرهم بالاجتماع في (ماه) فجاء المسلمون وعليهم حُذَيْفَةُ بنُ اليمان، ومعه نُعَيْمُ بن مقرِّن، وسواهم.. وأمرَ عمرُ الجند الذين كانوا في الأهواز ليشغلوا الفرس عنّا، ويقطعوا أمداد فارس عن أهل نهاوند، ففعلوا.

صادق: عفواً سيِّدي القائد.. من جاءك من القادة المشهورين؟

النعمان: كانوا كُثُراً.. أذكرُ لك منهم: عبد الله بن عمر.

صادق: ابن أمير المؤمنين؟

النعمان: أجلْ.. فهل هذا مستغرَبٌ أو مستهجَنٌ عندكم؟

صادقة: بل مستغرَبٌ يا جدِّي، فما عهدْنا كبراء القوم يرسلون أبناءهم إلى الحروب، ليخوضوا غمار المنايا.

النعمان: هذا هو الأمر الغريب.. وإلاَّ.. فهل نسيتم أنَّ أبا بكر كان يخوض المعارك بنفسه؟

ألم أحدِّثكم أن أمير المؤمنين عمر كان يريد أن يقود الناس، ويخوض المعركة بنفسه؟

بل.. ألم تقرؤوا سيرة نبيّكم الذي كان يقود الجيوش، ويخوض غمرات القتال بنفسه، وبأعمامه وأولاد أعمامه؟

هل نسيتم حمزة البطل الذي استشهد في غزوة أُحد؟

هل نسيتم ابن عمّه جعفر بن أبـي طالب الذي استشهد في غزوة مؤتة؟

صادق: لا يا سيِّدي لم ننس هؤلاء الأبطال وغيرهم.. ولكننا نتحدث عن أبناء هذا الزمان..

صادقة: تابعْ يا جدِّي القائد تابعْ، ففي النفس جُروح وفي القلب قُروح!.

النعمان: وكان من الأبطال الذين جاؤوا للقتال في نهاوند: جرير بن عبد الله البَجَليّ، والمغيرة بن شُعْبة، وطليحة بن خويلد، وعمرو بن معدي كرب وسواهم من الأبطال..

صادق: جيشٌ فيه هؤلاء الأبطال لا يُهْزَم.

النعمان: بدأت أحشد ما عندي من قوات، وأرسلتُ ثلاثة أبطال ليستطلعوا لنا الطريق، ويأتونا بالمعلومات قبل أن نتحرّك، وعاد الأبطال الثلاثة يطمئنوننا، ويقولون لنا: إن الفيرزان هو قائد جيش الفرس، وهو عندهم يساوي رستم الذي قتلناه في القادسية، وأنَّ عددهم مئة وخمسون ألفاً.

فانطلق لسان صادقة يتلو قول الله تعالى:

﴿الذين قال لهم الناس: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ، لم يمسسْهم سوءٌ، واتَّبعوا رِضْوانَ الله، واللهُ ذو فضلٍ عظيم﴾، صدق الله العظيم.

النعمان: وكذلك كان والحمد لله.

صادق: كم كان عددُكم يا سيِّدي؟

النعمان: كنّا ثلاثين ألفاً.

صادق: وهم مئة وخمسون ألفاً.. خمسة أضعاف عددكم.

صادقة: ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾.

النعمان: أنسيتم قولَ عليّ بن أبـي طالب الذي ذكرْتُه لكم قبل قليل؟

صادق: كيف ننساه يا سيِّدي؟ «إنَّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكنْ بالنصر».

النعمان: أحسنتَ يا ولدي..

أمرْتُ الجيش بالتقدّم، بعد أن عبَّأتُه ونظَّمتُه.. جعلتُ على المقدِّمة أخي نُعيم بن مقرِّن، وجعلتُ على الميمنة حذيفة بن اليمان، أمينَ سرّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وجعلتُ على الميسرة أخي سُوَيْدَ بن مقرِّن، وجعلتُ القعقاع على الفرسان، وعلى المؤخّرة مجاشع بن مسعود.

صادق: ما شاء الله.. كلُّ هؤلاء الأبطال الصَّناديد معك يا جدِّي؟

النعمان: وكثيرون غيرُهم ولله الحمد.

تقدَّمْنا ونحن على تعبئة، استعداداً للمفاجآت ولكلّ طارىء، وبالرغم من تطمين رجالي الذين استطلعوا لي الطريق.. فلمَّا تراءَيْنا كبَّرتُ وكبَّرَ معي المسلمون، فتزلزلت الأعاجم، وأمرتُ بوضع الأثقال، وقد أخجلني أن يبادر عِلْيَةُ المسلمين إلى ضرْب فسطاط النعمان المسكين، فقد عمل في بنائه أشرافُ الكوفة: حذيفة بن اليمان، وعُقْبة بن عامر، والمغيرة بن شُعبة وبُشَير بن الخصاصيَّة، وحنظلة كاتب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وجرير بن عبد الله البجليّ، والأشعث بن قيس، وسعيد بن قيس الهمذاني، ووائل بن حُجْر، وغيرهم من كرام المسلمين وأشرافهم.

صادقة: أنت تستأهل هذا الإكرام من أولئك الكرام وزيادة يا جدِّي.

النعمان: أستغفر الله يا ابنتي، ولكنهم كرام وأماجد..

وما إنْ حُطَّت الأثقال، وتمَّ نصبُ الفسطاط حتى أنشبتُ القتال.. فاقتتلنا يومين في حرب سجال، مرَّة لنا ومرَّة علينا، وفي اليوم الثالث لم يخرج المجوس من خنادقهم.

صادق: هل كان القتال شديداً يا سيِّدي؟

النعمان: وصف بعض المسلمين ذلك القتال فقال:

«لم أر والله مثل ذلك اليوم. إنهم ليجيئون كأنَّهم جبال حديد، قد تواثقوا أنْ لا يفرّوا من الحرب، وقد مَرَنَ بعضُهم بعضاً، كلَّ سبعة في قران، وألقَوْا حَسَك الحديد خلفهم، وقالوا: من فرَّ منَّا عَقَرَه حسك الحديد».

صادقة: أعوذ بالله..

صادق: إذنْ كنتم تعرفون، يا سيِّدي، أنَّهم نثروا خلفهم حَسَكَ الحديد؟

النعمان: لا يا بنيّ.. ما كنّا نعرف..

صادق: فكيف عرفتم؟

النعمان: بعثتُ كشَّافاً، فغرزتْ حسكةٌ في حافر فرسه، فلم يبرحْ مكانه، ونزل الكشَّاف الفارس عن جواده، ونظر في قائمة جواده، فوجد الحسكةَ فيها، فرجع بها، وعَرَضَها عليّ.

صادقة: الحمد لله الذي أطلعكم عليها قبل أن تقعوا فيها يا جدِّي.

صادق: الفضلُ بعد الله لعبقريتك العسكريّة التي جعلتك ترسل رجالك تستكشف وتستطلع وتجيئك بالمعلومات التي لا بدَّ منها لتحقيق النصر على عدوّك يا سيِّدي.

النعمان: ذلك الفضل من الله، ثمَّ ممّا تعلَّمتُه من خالد والمثنّى.

صادق: ثمَّ ماذا يا سيِّدي القائد؟

النعمان: كانت المبادأة في أيدي المجوس.. إن أرادوا الخروج إلى القتال خرجوا، وإن لم يريدوا لم يخرجوا، ولم يكن لنا فيهم حيلة، وكان ذلك في أول الشتاء، وخفتُ من زحف الشتاء علينا، ونحن في العراء، والمجوس في استحكامات جبليّة حصينة.

صادقة: فماذا فعلتم يا جدِّي؟

النعمان: دعوتُ القادة وأصحاب الرأي، واستشرْتُهم فيما ينبغي أن نعمل، لاستخراج المجوس إلى القتال، وأبدوا آراءً لم أرتحْ إليها، ثم عرضَ البطل المغوار: طليحةُ بن خويلد الأسديّ فكرةً فحواها: أن نبعث فرساناً تحتكُّ بالعدوّ، وترميهم بالنِّبال، حتى يلتحموا بهم مبارزةً بالكرِّ والفرِّ، فإذا ما خرجوا، التحمَ بهم جيش المسلمين.

صادق: رائع، وليس لهذه الخطة إلاَّ القعقاع الهائل.

النعمان: وكذلك كان أيها الفتى الألمعيّ.. رسمْنا خطة العمل للإيقاع بالعدوّ، ونفَّذها القعقاع الهائل، كما وصفتَ.

تقدَّم القعقاع بفرسانه نحو استحكامات المجوس، وتحرَّش بهم، ورماهم بالنَّبْل، فخرجوا إليه، فتظاهر بالضعف، وصار يتراجع أمامهم ببطء وعلى مراحل، حتى لا تنكشف الخطة، فيما كنت أتراجع بالجيش خلف القعقاع، ممّا أطمع بنا المجوس، فخرجوا خلفنا، حتى إذا ما ابتعدوا عن حصونهم، أمرتُ الجند بأن يلزموا أماكنهم، ولا يقاتلوا حتى آمرهم..

وسكت القائد هنيهاتٍ صعَّدَ فيها زفراتٍ ثم تابع يقول:

ــ وأمطرنا المجوس بوابلٍ من سهامهم، ونحن نستتر بالتُّروس التي في أيدينا، وكثرت في المسلمين الجراح، وهم لا يردّون على المجوس، امتثالاً لأمري.

فقاطعتُ القائد، وسألتُه عن الحكمة في هذا التصرُّف، فقال:

ـ لقد احتجَّ غيرُك على هذا التصرُّف يا ولدي.. قالوا لي: «ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما لقي الناس؟ فماذا تنتظر؟ ائذن لنا بالقتال».

صادق: وبماذا كنتَ تجيبُهم؟

النعمان: كنت أقول لهم: رويداً.. ثم ذكرتُ لهم الحكمة من تصرُّفي هذا.

صادق: وما هو؟

النعمان: كنتُ أستشير أصحابي في صباح ذلك اليوم الذي نشب فيه القتال.. أي أنَّ القتال نشب في وقت الضحى، وقد شهدتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا لم يقاتل من أول النهار، أخَّر القتال حتى تزول الشمس، ويصلِّي الظهر، وتهبُّ الرياح، وينزل النصر، فما منعني من القتال إلاَّ ذلك.

صادقة: الله أكبر!.

النعمان: انتظرت حتى مالت الشمس عن وسط السَّماء، فصحتُ في الناس:

«نصلِّي إن شاء الله، ثم نلقى عدوَّنا بعد الصلاة».

وصلَّينا، والقعقاع الهائل وفرسانه الأشاوس يقاتلون.

صادق: وبعد الصَّلاة؟

النعمان: بعد الصَّلاة يا صادق، انطلقتُ على حصاني أستعرض صفوف المسلمين، وأقف على الرايات رايةً راية، فأحمد الله وأصلِّي على نبيّه، ثم أخطب بهم محمِّساً إياهم.

صادقة: هل تذكر لنا نموذجاً من خُطَبك الحماسيَّة هذه يا جدِّي؟

النعمان: كنتُ أقول لهم:

«قد علمْتم ما أعزَّكم اللَّهُ به من هذا الدِّين، وما وعدَكم من الظُّهور، (أي

النَّصْر) وقد أنجزَ لكم بَوَادي ما وعدَكم وصُدوره، وإنما بقيتْ أعجازُه وأكارعُه، واللَّهُ مُنْجزٌ وعدَه، ومُتْبعٌ آخرَ ذلك أوَّلَه.

واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلَّة، وما استقبلْتم من هذا الأمر وأنتم أعزَّة، فأنتم اليوم عبادُ الله حقاً وأولياؤه.

وقد علمتم انقطاعَكم من أهل الكوفة، والذي لهم في ظَفَرِكم وعَزْمِكم، والذي عليهم في هزيمتكم وذُلّكم.

وقد ترون ما أنتم بإزائه من عدوّكم، وما أخطرتم (أي راهنتم) وما أخطروا (أي راهنوا) لكم.

فأمّا ما أخطروا (أي راهنوا) لكم، فهذه الرثة وما ترون من هذا السَّواد.

وأمَّا ما أخطرتم لهم، فدِينُكم وبيضتكم.

ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا.

فلا يكونُنَّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم.

واتَّقى اللَّهَ عبدٌ صَدَقَ الله، وأبلى نفسَه فأحسنَ البلاء، فإنَّكم بين خَيْرَيْنِ، مُنْتَظِرِينَ إحدى الحُسْنيين، من بين شهيدٍ حيٍّ مرزوق، أو فتحٍ قريبٍ وظَفَرٍ يسير».

صادق: هذه خطبةٌ بليغة ولكن.

النعمان: ولكنْ فيها لغة الأعراب وخشونتها، أليس كذلك يا صادق؟

صادق: أعني أنني لم أفهم بعضَ كلماتها، ولكنِّي أدركتُ معاني كلّ عبارة أو جملة يا سيِّدي.

صادقة: وبعدها يا جدِّي؟

النعمان: وبعدها شخصْتُ ببصري، ورفعتُ يديّ، وابتهلت بلسان صادق، وقلب واجف، وعينين دامعتين:

«اللّهم إني أسألك أن تقرّ عيني اليوم بفتح يكون فيه عزُّ الإسلام، وذُلٌّ يذلّ به الكفَّار، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة، واجعل النعمانَ أوّلَ شهيد اليوم على إعزاز دينك، ونصر عبادك».

ثم طلبْتُ من المسلمين أن يؤمِّنوا على دعائي، فأمَّن المسلمون وبكَوْا.

صادق: ذُرِّيَّة بعضُها من بعض.. كما فعل البطل الصالح البراء بن مالك.. أليس كذلك يا سيِّدي.

النعمان: بلى يا صادق، وكما دعا كثير من جند الله في سرّهم، ولم نَعْلَمْهم.

صادقة: ثم ماذا يا جدِّي؟

النعمان: ثم قلت للمسلمين:

«إني هازٌّ لكم الرَّاية ومكبِّر، فإذا سمعتم التكبيرة الأولى، فليُصْلحْ كلُّ رجل منكم من شأنه، وليشدّ على نفسه وفرسه.

ثم إني هازُّها لكم ومكبرٌ التكبيرة الثانية، فإذا سمعتموها، فلينظرْ كلُّ رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوّه، ومكان فرصته.

ثمَّ إني هازُّها لكم الثالثة، ومكبِّر، وحاملٌ، فاحملوا معي على اسم الله.

فهتفْنا أنا وصادقة، وعيوننا تفيض من الدَّمع، ثم طلبتْ منه صادقة أن يتابع، في صوتٍ باكٍ، فتابع يقول:

ــ وقفتُ في موضعي من قلب جيشي، ثم أطلقتُ التكبيرة الأولى وأنا أهزُّ الراية، ثمَّ الثانية فالثالثة وأنا أقتحم صفوف المجوس، وكانوا قد ربطوا أنفسهم بالسَّلاسل حتى لا يفرّوا، وشاهد المسلمون الراية وهي تهتزّ ثمَّ وهي تنقضّ على العدوّ، كما شاهدوني بقبائي الأبيض وقَلَنْسُوتي البيضاء وأنا أقتحم على العدوّ المجوسي، فحملوا جميعاً حملةَ رجلٍ واحد، فوالله ماعلمتُ من المسلمين أحداً

يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقْتَلَ أو يَظْفَرَ. حملْنا عليهم حملة هائلة، وثبتوا لنا، فما كنَّا نسمع إلاَّ وقْع الحديد على الحديد، حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة. . فلمَّا رأى المجوس صَبْرنا على قتالهم، وأنّا لا نبرح الميدان، انهزموا، فصار يقع الواحد فيقع عليه سبعة، بعضهم على بعض في قياد، فيُقْتَلون جميعاً، وصار حَسَكُ الحديد الذي وضعوه خلفهم يعقرهم، فكان لنا عليهم، لا كما تمنَّوا أن يكون.

صادق: الله أكبر. . الله أكبر!.

النعمان: لم يسمع السامعون بوقعةٍ كانت أشدَّ منها. .

واستمرَّ القتال حتى حلول الظلام، وكثر القتلى من المجوس حتى غطَّوْا أرض المعركة، فكان الناس والخيول ينزلقون فيها من دمائهم.

صادق: وزلقَ فرسك يا سيِّدي بدمائهم، ولقيتَ مصرعك وأنت تحمل الراية.

النعمان: كان أخي نُعيم قائد المقدِّمة ــ كما قلت لكم ــ وكانت المقدّمة قد تداخلت مع القلب أثناء الالتحام، فكان نعيمٌ قريباً مني، فرآني أسقط عن فرسي، فبادر إلى حمل الراية من يدي قبل أن تقع على الأرض. . شاهدته يحملها وأنا بين الغيبوبة والوعي، ثم سجَّاني بثوبٍ ومضى.

صادق: مضى بالراية إلى نائبك حذيفة بن اليمان يا سيِّدي، وسلَّمه إياها، وترك حذيفة قيادة الميمنة لنُعيم، واتجه هو إلى القلب، إلى المكان الذي كان عليك أن تكون فيه، فأقام اللواء.

النعمان: بارك الله فيه وفي نُعيم وفيك يا صادق على هذه المعلومة المفيدة.

صادق: وعلمَ المغيرة بن شعبة باستشهادك يا سيِّدي، فقال لمن رآك مسجَّى: «اكتموا مصاب أميركم، حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم، لكيلا يَهِنَ الناس».

النعمان: بارك الله في المغيرة من رجل عقله يزن الجبال.

صادقة: هذا لأنه يعرف مكانتك في جيشك يا جدِّي، واستشهادك قد يُضْعفهم ويفتُّ في عَضُدِهم.

صادق: وازداد الليل ظلاماً، وصبر المسلمون، فانكشف العجم وتراجعوا، فيما كان المسلمون يضغطون ويشدّدون عليهم، حتى أفقدوهم وَعْيَهم، فضلُّوا طريقهم، فوقعوا في (اللِّهْب).

صادقة: ما معنى اللِّهْب يا جدِّي؟

صادق: أنا أقول لك.. اللِّهْبُ هو خندقٌ عميق كان هناك.. وقعوا فيه، وقع فيه أكثر من مئة ألف مقاتل وماتوا، هذا سوى من قُتل في المعركة، وكانوا أكثر من ثلاثين ألف قتيل.

النعمان: الذي أذكره، أن البطل معقل بن يسار جاءني وبـي رَمَقٌ من حياة، فغسل وجهي من أداوة ماء كانت معه، فسألته:

من أنت؟

قال: معقل.

فسألته: ما صنع المسلمون؟

فقال: أبشرْ بفتح الله ونصره.

فقلت، وأنا أغمض عينيّ في سعادة:

الحمد لله.. اكتبوا إلى عمر.

صادقة: الله أكبر.. وأنت تجود بنفسك يا جدِّي، لا تفكّر فيما يُصْلِح شأنك، وتفكِّر بالمسلمين.. بالنصر، فلما طمأنك جنديُّك، أغمضتَ عينيك في سعادة.. الله أكبر.. هكذا ينبغي أن يكون القادة، وبك وبأمثالك تنتصر الجيوش يا جدِّي العظيم.

والتفتتْ صادقة نحوي: ثم قالت:

ـ تابعْ يا أخي أرجوك.

فتابعتُ حديثي في فرحٍ وسعادة، وقلت:

ـ وانتهت المعركة، وانتصر المسلمون، وانتظروا أن تظهر عليهم بقامتك الممشوقة، ووجهك الوضيء، وطال انتظارهم، فتساءلوا عن أميرهم المحبوب، فقال لهم أخوك معقل بن مقرِّن:

«هذا أميركم قد أقرَّ الله عينَه بالفتح، وختم له بالشهادة».

فبكى المسلمون، واشتدَّ حزنهم عليك يا سيِّدي، ثم بادروا إلى مبايعة نائبك حذيفة بن اليمان أميراً عليهم.

النعمان: وأمير المؤمنين؟

صادق: كان في المدينة يدعو ويستنصر اللَّهَ لكم مثلَ المرأة الحبلى، كما وصفه من رآه.. ولمَّا قدِمَ السائب بن الأقرع إلى المدينة، يحمل رسالة الأمير الجديد حذيفة، إلى أمير المؤمنين، ومعه الغنائم الكبيرة، لم يأبه عمر بالغنائم، وسأل عنك وعما فعل المسلمون، فبشَّره السائب بالنصر والفتح، فسأل عمر من جديد:

ـ ما فعل النعمان؟

فقال السائب:

زلق فرسه في دماء القوم، فصُرع فاستشهد رحمه الله.

فقال عمر، وهو يمسك رأسه بكلتا يديه:

إن لله وإنا إليه راجعون.

ثم صاح: يا أسفا على النعمان.

ثم بكى ونشج، وبكى معه المسلمون. ثم سأل أميرُ المؤمنين:

ومَنْ ويحك؟

فقال السائب، وقد آلمه ما رأى من أمير المؤمنين:

والله، يا أمير المؤمنين، ما أصيبَ بعده من رجل يُعرَفُ وجهُه.

فقال أمير المؤمنين وهو في قمّة التوتّر والتأثّر:

«هؤلاء هم المستضعفون من المسلمين.. لا يضرُّهم ألاَّ يعرفهم عمر، ولكنَّ الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوهَهم وأنسابَهم..».

ثم قال أمير المؤمنين:

«وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أمِّ عمر؟»

ثم صَعِد أمير المؤمنين المنبر، فنعى إلى المسلمين النعمان.. نعاك إلى المسلمين يا سيِّدي، وقد وضع يده على رأسه وهو يبكي.

النعمان: والفيرزان؟ هل نجا الخبيث من الموت؟

صادق: خرج أخوك نعيم، يا سيِّدي، ومعه القعقاع العظيم يطاردون من فرَّ من المجوس.. خرجا بفرسانهم المغاوير.. كان القعقاع وفرسانه أولاً، ثم تلاه نعيمٌ وفرسانه، وأدرك القعقاعُ الفيرزانَ عندما بدأ طريق همدان يصعد في الجبل، وتصادفَ مرور قافلة من البغال والحمير المحمّلة بالعسل، فعاقت الفيرزان، فنزل عن جواده وصعد يجري بين صخور الجبل، ورآه القعقاع، فنزل القعقاع عن جواده أيضاً، وأدركه فقتله عند ثنيّة الجبل.

النعمان: الله أكبر.. ما أروعك يا ابن عمرو!. تابعْ يا صادق.

صادق: وشاهد المسلمون القعقاع وهو يقتل الفيرزان، فكبَّروا وهلَّلُوا، وهتفوا للقعقاع البطل، وغنموا القافلة، فلمَّا رأوها محمَّلة بالعسل قال قائلهم:

«إنَّ لله جنوداً من عسل».

وذهب قولهم هذا كأحسن مَثَل.

● ● ●

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الكامل في التاريخ : ابن الأثير.

٣ ـ السيرة النبوية : ابن هشام.

٤ ـ السيرة النبوية : ابن كثير.

٥ ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه.

٦ ـ فقه السيرة : محمد الغزالي.

٧ ـ الطريق إلى المدائن : أحمد عادل كمال.

٨ ـ القادسية : أحمد عادل كمال.

٩ ـ شهيد نهاوند : أحمد عادل كمال.

١٠ـ قادة فتح بلاد فارس : محمود شيت خطاب.

١١ـ طبقات فحول الشعراء : محمود محمد شاكر.

● ● ●